محمد إبراهيم مبروك

الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول ﷺ











هذا الكتاب وهذا الكاتب

يقول برناد شو أحد أكبر كتاب بريطانيا فى القرن العشرين : لو كان محمد يعيش بيننا لحل مشاكل العالم بينما هو يحتسى فنجانا من القهوة.

يبدو أن البعض أستغل الفرصة فى موجة الهجوم الغربى على الإسلام والمسلمين ليتبجح بالتهجم على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فإنه من أغرب الغرائب أن يأتى هذا الهجوم من جانب بابا الفاتيكان الذى يقف على رأس الكنسية الكاثوليكية صاحبة التاريخ الطويل فى الشرور والآثام واللاعقلانية.

وكما يقول الكاتب وقاصداً البابا بندكت: كيف يجرؤ لرجل يحمل على عاتقه محاكم التفتيش وصكوك الغفران وزنا المحارم أن يهاجم الرسول أعضم البشر.

أما الكاتب فهو المفكر الإسلامى محمد إبراهيم مبروك أحد أصحاب الكتب الأكثر إثارة فى السنوات الأخيرة مثل:

- الإسلام الليبرالى.
- الصراع بين الإسلام والغرب الأمريكى.
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمراءة.

ويوصف محمد إبراهيم مبروك بأنه يمثل المدفعية الثقيلة للاسلاميين فى مواجهة العلمانيين ولكنه فى هذا الكتاب يتنقل لساحات جديدة للجهاد فى الدفاع عن الإسلام.



السعر ١٥ جنية

دار
الدراسات
والأبحاث
المعاصرة

الرد على بابا الفاتيكان
وهجوم قادة الغرب على الرسول ﷺ

رقم الايداع : ٣٦٦٦ / ٢٠٠٧

الرد على بابا الفاتيكان
وهجوم قادة الغرب على الرسول ﷺ


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقول برنارد شو (أحد أكبر كُتَّاب إنجلترا فى اللقرن العشرين):

«إذا كان محمد يعيش الآن بيننا لاستطاع أن يحل مشاكل العالم بينما هو يحتسى فنجانًا من القهوة».

وبالطبع فإن ما يقوله برنارد شو حقيقى تمامًا ولكنى أخالفه الرأى فى جزئه الثانى لأن الرسول ﷺ كان يحقق إنجازاته بالجهد والاجتهاد والمعاناة، وقبل كل ذلك بإخلاص العمل لله والاهتداء بهديه، وبذلك حقق عظمته التى فاقت جميع الإنسانية برأى الكثير من مخالفيه أنفسهم.

ولكن اندلاع الحملة التى تصاعدت أخيرًا على شخص الرسول ﷺ من جهات وبلاد متعددة فى الغرب وفى وقت متقارب والتى لم يشبهها حملة مثلها منذ تاريخ طويل يثير بلا شك فى وجود أسباب سياسية.

فإن قيل أن هناك شخصيات مسيحية ذات مكانة عظمى فالبابا بندكت أو يمينية متعصبة كالقس روبنسون قد شاركت فيها بشكل أساسى فإنه قد شارك فيها أيضًا شخصيات علمانية ق ح ت مثل رئيس إيطاليا السابق وراسمو الكاريكاتير والجرائد والمجلات الناشرة لها.

إذن لا يمكن إرجاع الحملة إلى التعصب المسيحى فقط بل يمكن تفسير هذه المشاركة كمجرد استغلال لفرصة مواتية موهومة هيأتها لها الحملة العامة على الإسلام لرفع الشأن العقائدى المسيحى فى مقابل الشأن العقائدى الإسلامى.

أما هذه الحملة نفسها فلا أستطيع تفسيرها إلا فى إطار نظريتى فى تفسير الصراع العالمى عن حتمية الصراع بين الإسلام والبراجماتية (والتى خصصت لها

كتابى (الإسلام والغرب الأمريكى) تلك النظرية التى تتمحور حول حتمية الاستقطاب التدافعى بين البراجماتية والإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وسقوط المنظمات الأيديولوجية معه باستثناء الإسلام كحالة أيديولوجية فريدة قادرة على مواجهة القدرات الهائلة للبراجماتية الليبرالية على التدمير والإسقاط والتفكيك ومن ثم تأتى الحملة على شخص الرسول ﷺ وتشويهه والتشنيع عليه كمحاولة للتشكيك فى المنظومة العقائديةللإسلام فى إطار الحملة البراجماتية الليبرالية فى الحرب عليه.

ومن الطبيعى جدًا أن تسخر البراجماتية التعصب المسيحى فى سبيل تحقيق غاياتها لأن هذا من صميم عملها نفسه.

ولكن العجب العجاب هو أن يصدر مثل هذا الهجوم من بابا روما، أى بابا الكاثوليك بالذات فكيف يمكن أن يتصور الإنسان أن هذا البابا الذى يحمل على عاتقه الإرث التاريخى الطويل للكنيسة الكاثوليكية المتمثل فى صكوك الغفران ومحاكم التفتيش وزنا المحارم أن يتهجم على رسول الله ﷺ ويصفه باللاعقلانية والعنف فى نشر الدين واجتراء الشرور لأنه بالنسبة للحديث عن العقلانية والعلم وحرية الاعتقاد وإرادة الخير والفضيلة فإن البابا الذى يحمل مثل هذا التاريخ لا ينبغى أن يقف فى آخر الصف بالنسبة للمتحدثين عن مثل هذه الأمور وإنما ينبغى أن يخرج من الصف نهائيًا.

أطمح أن يعيننى الله على كتابة أربعة كتب تتعلق بالرسول ﷺ بشكل مباشر كتابى هذا وكتاب يبرز صورته الخُلقية والخلقية ، وجوانب شخصيته بوجه عام.

وبالنسبة لهذين الكتابين فما كنت أُعد لكتابتهما فى الواقع القريب ولكن تتابع الهجمات فى الغرب على شخصية الرسول ﷺ وهو الذى حتم علىَّ وجوب الرد على هذه الهجمات والحاجة الشديدة إلى إبراز جوانب شخصيته الفذة أمام الغرب الجاهل أو المتجاهل، بل وأمام العالم أجمع بوجه عام.

أما مشروعى الأساسى الذى وهبت له حياتى الفكرية فيتضمن فى الأساس

كتابين آخرين هما:

* لماذا جاء محمد؟

* هل كان حقًا محمد رسول الله؟

وهذا الكتاب الأخير يمثل أحد أهم طموحاتى الفكرية وإن كنت أعتقد أن التراجع الفكرى للعالم الإسلامى الآن يبعد به عن النضج الذى يؤهله لاستيعاب كتاب كهذا، ولكن ما أريد الإشارة إليه هنا فى سياق الرد على هجمات الغرب، أننا سنناقش بعض القضايا التى يجب أن يتضمنها بشكل أصيل ذلك الكتاب المشار إليه، وما قد يلاحظه البعض من الجرأة فى هذا التناول فهو لا يشكل سوى قدر بسيط من الجرأة التى يحتمها موضوع الكتاب المذكور ومن ثَمَّ فقد يكون تناولنا لبعض هذه القضايا هنا هو بمثابة مدخل لتناولنا لها فى ذاك الكتاب.

أما أهمية الحاجة إلى هذه الجرأة فتكمن فى أن كون الداعى لها هو عقم الجدل القائم فى هذا الإطار بين الشرق والغرب، إذا ما يتم عادة التجاهل من جانب المسلمين للقضايا الحساسة التى يتناولها الغربيون أو بقول أدق محترفو الدس والتشكيك من مغرضيهم بالهجوم والطعن أو الالتفاف حولها دون التعرض للنقاط المحورية فيها وهو الأمر الذى لا ينتج عنه سوى اطراد المضى فى مسارين متوازيين بينهما بين الأخذ والرد.

وأعتقد أن علاقة الرسول ﷺ بزوجاته والافتراء عليه بالتطرف الشهوانى يمثل أحد أهم هذه القضايا.

ومن ثم فإننى أرجو ألا يمثل ما يحتمه تناول مثل هذه القضايا فى مواجهة الغربيين من تجرد علمى حرجًا نفسيًا وحساسية دينية لدى القارئ المسلم بوجه خاص؛ لأن العبرة فى مثل هذه الأمور بالنتائج وليس ببعض عناصر الآليات الجدلية بين الإيمان والفكر المتجرد التى يقتضيها تناول مثل هذه القضايا.

وسيكون منهجنا هنا بإذن الله هو التركيز على ثلاثة قضايا رئيسية ووضع المقارنة

بين موقف وواقع كل من الإسلام والمسيحية الكاثوليكية بوجه خاص منها.

هذه القضايا الثلاثة هى:

١ - العقلانية.

٢ - حرية الاعتقاد.

٣ - الأخلاق والشرور.

والله ولى التوفيق

محمد إبراهيم مبروك

٠١٠١٤٩٠٤٩٩

mabrok - mn 2007@yahoo. com

هجوم الغرب على شخص الرسول



هجوم الغرب على شخص الرسول ﷺ

ونقدم هنا بعض المواقف والنصوص التى تعبر عن هجوم بعض قادة الغرب ورموزه في الهجوم على شخص الرسول ﷺ.

ونبدأ ذلك بالبابا بندكت بابا الفاتيكان وزعيم المذهب الكاثوليكي صاحب الإرث التاريخي المعروف، ثم نتلوه ببعض الشخصيات الدينية والسياسية الأخرى، أما موضوع الصور التي نشرت في العديد من الصحف الغربية خصوصًا في الدنمارك والنرويج فهو أشهر من أن ننوه عنه.

البابا بندكت بابا الفاتيكان

قدم البابا محاضرته قائلاً العبارات التالية نقلاً عن النص الرسمي الصادر عن الفاتيكان للخطاب[1].

«لقد تذكرت ذلك [التفكير في العلاقة بين المنطق والإله] عندما كنت أقرأ مؤلَّف البروفيسور ثيودور خوري الذي يتحدث في جزء منه عن الحوار الذي حدث ربما عام (١٣٩١م) في الخنادق الشتوية بالقرب من أنقرة، بين الإمبراطور البيزنطى المفكر عمانويل الثاني باليولوجس وبين أحد المثقفين الفُرس عن موضوع المسيحية والإسلام، وحقيقة كلّ منهما.

من المحتمل أن الإمبراطور نفسه هو من رتب هذا الحوار خلال فترة حصار القسطنطينية بين عام (١٣٩٤م ، ١٤٠٢م)، ولعل ذلك ما يُفسر أن نقاط الإمبراطور كانت أكثر تفصيلاً من ردود المثقف الفارسي.

---

(١) راجع مواقع النت المختلفة شهر يونيو ٢٠٠٦م.

لقد دار الحوار بتوسع حول أسس الإيمان في كل من الإنجيل والقرآن، وتَرَكَّز خاصة حول صورة الإله وصورة الإنسان، مع العودة بشكل متكرر إلى العلاقة بين «كتب التشريعات الثلاثة»: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن.

إنني في هذه المحاضرة أود أن أناقش نقطة واحدة ـ قد تكون هامشية بالنسبة إلى ذلك الحوار نفسه ـ ولكنني وجدتها بالنسبة إلى موضوع «الإيمان والمنطق» مثيرة للاهتمام، ويمكن أن تفيد كنقطة بداية لتأملاتى حول هذا الموضوع.

ففي النقاش السابع والذي حرره البروفيسور خوري، يناقش الإمبراطور فكرة الجهاد (الحرب المقدسة). لابد أن الإمبراطور كان يعرف السورة (٢:٢٥٦) التي تنص على: ﴿لا إكراه في الدين﴾ إنها واحدة من سُور الفترة الأولى [من الرسالة] عندما كان محمد بلا قوة وتحت التهديد. ولكن من الطبيعى أن الإمبراطور أيضًا كان يعرف التعاليم التي تكونت فيما بعد، والتي دُوِّنت في القرآن بخصوص الحرب المقدسة.

وبدون الانزلاق إلى التفصيلات ـ مثل اختلاف المعاملة الذي مُنِح لـ «أهل الكتاب» عن «الكفار» ـ فقد واجه الإمبراطور مُحاوره بأسلوب مباشر وجاف ـ إلى حد ما ـ حول السؤال المحوري عن العلاقة بين الدين وبين العنف بوجه عام من خلال هذه العبارات، وأنا أنقلها هنا.

«أرِني ماذا قدم محمد من جديد، وسوف لن تجد إلا أمورًا شيطانية وغير إنسانية، مثل أوامره التي دعا إليها بنشر الإيمان عن طريق السيف». واستمر الإمبراطور يشرح بالتفصيل كيف أن نشر الإيمان من خلال العنف أمرٌ غير منطقي. إن العنف لا يتناسب مع طبيعة الإله، وكذلك طبيعة الروح.

ويقول [الإمبراطور]: «إن الإله لا يفرح بإراقة الدماء، والتصرف بشكل غير منطقي هو مخالف لطبيعة الإله. إن الإيمان يولد من الروح، وليس من الجسد. إن من يدعو شخصًا ما إلى الإيمان يحتاج إلى القدرة على الحديث الجيد، والتفكير المنطقي المقبول دون عنف أو تهديدات . . . لكي تقنع نفسًا عاقلة، لا يحتاج

الشـخص إلى ذراع قوية، أو سـلاح من أى نوع، أو أي وسـيلة أخـرى التهـديد شخص ما بالموت. . ».

إن الفكرة الغاليـة في هذا الحوار ضد التحول [إلى دين مـا] بالعنف هي التالي: إن عدم التصرف طبـقًا للمنطق أمر مخالف لطبيعـة الإله. ويلاحظ محرر الكتاب ثيودور خوري: بالنسـبة للإمبراطور البيزنطي الذي تَشكَّل فِكره من خـلال الفلسفة اليونانية، فإن هذه العبارة تدلل على نفسها. أما بالنسبة للتعاليم المسلمة، فإن الإله «لا محدود». إن إرادته لا تحـدها أي من تقسيمـاتنا، حتى فى ما يتعلـق بممارسة المنطق.

وينقل هنا خوري عن الكاتب الفرنسي المهتم بالإسلام «أر. أرنالدز» إشارته إلى أن ابن حزم قـد وصل إلى درجة القول: إن الإله لاتلزمه حـتى وعوده هو، وليس هناك ما يجبره أن يوضح لنا الحقيقـة. وإن شاء الإله، فيمكن أن نُجبَر على ممارسة عبادة الأصنام».

جيري فالويل

هو القـسيس الإنجـيلي المعـروف، والذي يقيم في مـدينة لينشـبرج في منطقـة فيرجينيا بالولايات المتحـدة الأمريكية، وله برنامج أسبوعي إذاعي وتلفزيوني يصل إلى أكثر من ١٠ مليون منزل أسبوعيًا.

وقد قال ضمن هجومه على النبي ما قاله على شبكات التلفار الأمريكية وهو ما نصه: «أنا أعتقد أن محمدًا كـان إرهابيًا. لقد قرأت ما يكفي. . من المسلمين وغير المسلمين أنه كان رجل عنف، ورجل حروب».

بات روبرتسون

وهو قسيس إنجيلي معروف بتأييده المطلق لإسرائيل، ويمتلك عددًا من المؤسسات الإعلامية من بينها نادى الـ ٧٠٠، وهو برنامج تلفزيوني يصل إلى عشرات الملايين في الولايات المتحـدة الأمريكية إضافـة إلى محطة فضـائية تصل إلى ٩٠ دولة في

العالم بأكثر من ٥٠ لغة مختلفة وهي محطة «البث المسيحي»، ومنها إذاعة الشرق الأوسط المتخصصة في التبشير في منطقة العالم العربي.

في هجومه على النبي ﷺ قال التالي: «كل ما عليك هو فقط أن تقرأ ما كتبه محمد في القرآن. وإنه كان يدعو قومه إلى قتل المشركين.. إنه رجل متعصب إلى أقصى درجة .. إنه كان لصًا وقاطع طريق».. «إن ما يدعو إليه هذا الرجل [محمد] في رأي الشخصي ليس إلا خديعة وحيلة ضخمة.. إن ٨٠٪ من القرآن نقل من النصوص المسيحية واليهودية.

ولقد ذكر موسى أكثر من ٥٠٠ مرة في القرآن. أنا أقول: إن هذا القرآن ما هو إلا سرقة من المعتقدات اليهودية.. ثم استدار محمد بعد ذلك ليقتل اليهود والمسيحيين في المدينة. أنا أقصد.. أن هذا الرجل [محمد] كان قاتلاً [سافكًا للدماء].

جيري فاينز

وهذا الرجل هو راعٍ لكنيسة في جاكسون فيل فلوريدا، يصل عدد أتباعها إلى ٢٥ ألف شخص وهو من أبرز المتحدثين الأمريكيين في المؤتمر السنوى للكنائس المعمدانية الجنوبية، وهو أكبر مؤتمر ديني يعقد في كل عام.

قام الرئيس الحالي والرئيس السابق بمدح هذا القسيس واعتباره من المتحدثين بصدق عن دينهم، وأصدر هذا الرجل تصريحات مليئة بالكراهية والعداء للإسلام خلال الاجتماع السنوى للكنيسة المعمدانية الجنوبية، والذى عقد عام (٢٠٠١م) في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري الأمريكية.

وخلال الاجتماع افترى جيري فاينز - الرئيس السابق للمؤتمر السنوي للكنيسة المعمدانية الجنوبية - على الرسول محمد ﷺ واتهمه بأنه «شاذ يميل للأطفال ويمتلكه الشيطان، وتزوج من ١٢ زوجة آخرهن طفلة عمرها تسع سنوات».

ويذكر أنه «قد رفض قادة الكنيسة المعمدانية الجنوبية إدانة تصريحات فاينز،

وأعلنوا تأييدهم لفاينز وتصـريحاته. وقد قام الرئيس الأمريكي بمخـاطبة الحاضرين بالمؤتمر من خلال الأقـمار الصناعية. ولم يصـدر منه شخصـيًا أي تعليق على هذه الإهانات للنبي ﷺ من خلال منصة هذا المؤتمر السنـوي الذي يُعد أكبر المؤتمرات الدينية الأمريكية»[1].

(١) د/ باسم خفاجي: لماذا يكرهونه (كتاب البيان): ص٤٢.

موقف الدول الغربية

من الصور المسيئة للرسول ﷺ

موقف الدول الغربية من الصور المسيئة للرسول ﷺ

أعربت سويسرا عن إدانتها لجميع المحاولات التي تلحق الأذى والضرر بالمسلمين أو تؤدى إلى جرح مشاعرهم.

وقالت الخارجية السويسرية فى بيان رسمى متعلق بالأزمة المتصلة بنشر الرسوم المسيئة للرسول الكريم، إنها تكن الاحترام الكبير لعقيدة المسلمين وإيمانهم أينما كانوا فى العالم، وحثت فى بيان على ضرورة اللجوء إلى الحوار والاستعداد لسماع الآخر، 'لأنهما السبيلان للوصول إلى الاحترام والتفاهم بين المجتمعات والثقافات، أما العنف والتهديد فهما غير مقبولين بأى حال'.

كما أشارت الخارجية السويسرية إلى أهمية 'التفريق بين الالتزام بالحصول على المعلومة بموضوعية، والرغبة فى الإساءة لإيمان ومشاعر الأشخاص والمجتمعات'، وأوضحت مدى العلاقات الطيبة بين سويسرا والعالم الإسلامى، التى وصفها البيان بأنها 'مبنية على أسس من الثقة والتعاون الجيد'.

جاء ذلك ردا على الاحتجاجات الإسلامية على قيام خمسة صحف سويسرية هى 'فلت فوخه وبليك ولوتون وفانت كاتر أور وتريبون دى جنيف'، بإعادة نشر بعض من الرسوم المسيئة إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم، بدعوى حرية التعبير عن الرأى وحماية قيم الحضارة الأوروبية.

وفى بولندا اعتذر رئيس تحرير صحيفة 'ريغبو سبوليتا' اليمينية عن مساس الصحيفة بمشاعر المسلمين الدينية، بعد نشرها اثنين من الرسوم المسيئة للرسول الكريم. وقال غريغورى غاودن فى موقع الصحيفة على الإنترنت 'هدفنا كان الدفاع

عن وسائل الإعلام الحرة من ابتزاز وعنف المتطرفين فى الإسلام' .

وكان وزير الخارجية البولندى شتيفن ميلر قدم يوم نشرت الصحيفة الرسوم، اعتذارات رسمية باسم وارسو. وانتقد رئيس الوزراء كازيمير مارشينكيفيتش نشر الرسوم يوم صدورها فى الصحيفة، واعتبرها 'تجاوزا لحدود حرية التعبير' .

من جهته عبر رئيس الوزراء الكندى ستيفن هاربر عن أسفه لقيام مجلة 'ويسترن ستاندرد' ، بإعادة نشر الرسوم خلافا لقرار طوعى اتخذته كبريات الصحف ووسائل الإعلام الكندية. وأثنى فى تصريحات للصحفيين على ما وصفه بطريقة الاحتجاج الحضارية التى اتبعتها الجالية الإسلامية بكندا.

وفى المقابل من ذلك فقد اتهم وزير الخارجية الإيطالى جيان فرانكو فينى ما دعاها شبكة أصولية بتعمد تأجيج الاحتجاجات الغاضبة على نشر الرسوم المسيئة إلى الرسول الكريم. وقال فينى لوكالة الأنباء الإيطالية 'أحدهم نفخ فى النار'، موضحا أنه لا يتخيل عدم تدخل دول مثل سوريا وإيران فى وقف الهجمات على مقار السفارة الدانماركية، على حد تعبيره.

أما فى بريطانيا فقد أكد وزير الداخلية تشارلز كلارك تضامن بلاده مع الحكومة الدانماركية، لكنه شدد على ارتباط ممارسة حرية التعبير باحترام معتقدات الآخرين.

وقد واصلت العديد من الصحف الأوروبية إعادة نشرها للرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول الكريم، فى وقت تصاعدت فيه حدة الغضب فى العالم العربى والإسلامى، وطالب الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين بجعل الجمعة يوم احتجاج وغضب عالميا.

وبعد أن نشرت صحيفة 'فرانس سوار' نفس الرسوم المسيئة التى نشرتها صحيفة 'غيلاندز بوستن' الدانماركية فى ديسمبر/ كانون الأول الماضى، عادت صحيفة 'لوموند' الشهيرة ونشرت رسما للنبى محمد عليه السلام تحت مزاعم الدفاع عن حرية التعبير.

ونشرت لوموند رسما للنبى الكريم احتل نصف مساحة صفحتها الأولى تحت توقيع رسام الصحيفة بلانتو, كما نشرت افتتاحية بعنوان 'رسوم كاريكاتورية حرة' فى نفس العدد.

وصور بلانتو فى رسمه وجه النبى محمد مستخدما بدل الخطوط جملة مكتوبة بخط اليد فى كل الاتجاهات 'يجب أن لا أرسم محمدا', فيما ذكرت الصحيفة فى افتتاحيتها أنه يمكن للمسلم أن يشعر بالصدمة بسبب رسم الرسول، 'غير أنه لا يمكن لديمقراطية إنشاء شرطة للرأى على حساب الاستهانة بحقوق الإنسان'.

من جهتها أعلنت صحيفة ليبراسيون اليسارية أنها ستخصص ست صفحات فى عدد الجمعة لقضية الرسوم الكاريكاتورية للنبى الكريم, وستخصص رسمين اثنين من نفس الرسوم التى نشرتها الصحيفة الدانماركية, وهو ما ينطبق على أسبوعية 'شارلى-أبدو' التى قررت إعادة نفس الرسوم يأتى موقف الصحف الفرنسية بعد أن نشرت صحيفة 'لو تان' السويسرية أيضا الرسوم التى نشرتها الصحيفة الدانماركية.

كما نشرت صحيفة 'ماجيار هيرلاب' المجرية رسما ساخرا يظهر فيه إمام يأمر مفجرين انتحاريين بالتوقف لأن 'الجنة نفد ما لديها من الحور العين'، على حد زعم الصحيفة ونشرت عدة صحف أوروبية أخرى من بينها 'إيه بى سى' و'بيريوديكو دو قطالونيا' الإسبانيتان صورا لصحف نشرت الرسوم الساخرة.

كما انضم تلفزيون 'بى بى سى' لوسائل الإعلام التى نشرت الرسوم المسيئة، وبررت 'بى بى سى' الإجراء الذى اتخذته برغبتها فى مساعدة المشاهدين على فهم المشاعر القوية التى أثارتها تلك الرسوم فى العالم.

وقد دافع الصحفى الدانماركى فليمينغ روز صاحب فكرة الرسوم المسيئة إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، عن نشر هذه الرسوم وفى ندوة بمعهد بروكينغز بواشنطن قال روز ردا على سؤالٍ عما إن كان يشعر بالندم، 'إن هذا السؤال كمن يسأل ضحية عملية اغتصاب عمّا إن كانت نادمة لأنها لم تكن ترتدى

ثياباً محتشمة'.

ويمكن القول أن أوروبا بوجه عام مازالت ترفع شعار حرية الرأى والتعبير واستقلالية وسائل الإعلام فى مواجهة غضب العالم الإسلامى.

فقد رفض البرلمان الأوروبى بشدة فرض أى قيود على ما يسميه حرية الإعلام. وأكد قرار تبناه البرلمان فى ختام مناقشات بمقره فى ستراسبورغ بفرنسا، أن حرية التعبير واستقلال الصحافة من الحقوق العالمية التى لا يمكن المساس بها إذا شعر أفراد أو جماعات باستياء نتيجة ما تنشره الصحافة واعتبر القرار أن حظر نشر أى مواد يكون فقط من خلال المحاكم وفقا للقوانين الوطنية والأوروبية. وحث القرار مع ذلك الصحفيين على احترام حقوق الإنسان والأديان خلال ممارستهم لحق حرية الإعلام.

الصورة الذهنية في الغرب عن الرسول



كما رسمتها الأحقاد الدينية والمصالح الإستعمارية

أولاً الدراسات الأوروبية الأولى عن الإسلام

الدراسات الغربية الأولى عن الإسلام

يعد بطرس المسمى بالمبجل رئيس دير كلوني (الآباتي) نحو ١٠٥٩ ـ ١١٥٦م هو مؤسس الدراسات الأوروبية عن الإسلام لدى مسيحي القرون الوسطى فقد «استعان بعدد من المستعربين والمختصين من فروع علمية مختلفة وكان في طليعتهم: روبرت كتنز، وهرمان دالماتا وهما من الدارسين الإنجليز لعلمي الفلك والرياضيات الغربيين.

وفي الوقت نفسه كلف بطرس المبجل أحد أساتذته من المستعربين ويدعى بطرس الطليطلي... مساعدة سكرتيره على أن يترجم العربية مقالات مناهضة للإسلام... وتعد ترجمة روبرت كتنز التى جرت تحت إشراف بطرس المبجل أول ترجمة كاملة للقرآن من العربية إلى اللغة اللاتينية»[1].

ويقول الدكتور محمد ياسين عربي في ملاحظاته المدونة على هامش ترجمته لكتاب المسيحية والإسلام: «إننا نجد كتننز اعتمد في ترجمته على استخراج المعاني التخمينية دون تحليل وفهم حقيقي للغة العربية، ورغم استعانته ببعض التفاسير للقرآن فإنه كان يميل إلى الاختصار وإلي حذف بعض الآيات ولصعوبة تحديد المعاني اللغوية في القرآن فإنه لا توجد أية واحدة مترجمة تعطي المعنى المقارب لحقيقتها. وعلى الرغم من الأخطاء الشنيعة نجد أن هذه الترجمة أصبحت أساسًا للترجمات الأخرى وللأحكام المبتسرة على الإسلام في نظر الغرب إلى يومنا هذا».

إنها لمأساة حقًا أن يقوم الوعي الغربي للإسلام على هذه الأخطاء الشنيعة في

---

(١) اليكس جورافسكى ـ «الإسلام والمسيحية» : ص ٨٢ : ٨٣.

وقامت مجموعة العمل بترجمة بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي محمد «لكن الباحثين لم يتمكنوا إلى الآن من الوقوف على الأصل العربي لها لأن المترجمين أهملوا الإشارة إلى الإسنادات التى يتبعها الفقهاء والمحدثون والمفسرون المسلمون في مسألة تحقيق الأحاديث النبوية.

أما الماتا فقد كتب (حوالى ٤٥ صفحة) عن مبادئ النبي وحياته وعن تاريخ الإسلام الذى وصفه بالمضحك متخذًا إطارها المرجعى من القصص والمحاورات الملفقة المزعومة بين الأحبار (اليهود) والنبي»[١].

وكانت هناك ترجمات أخرى للقرآن لم تحصل على انتشار واسع مثل ترجمة مارك الطليطلي (نهاية القرن الثالث عشر للميلاد) ويوحنا السيغوفي (أواسط القرن الخامس عشر للميلاد) واعتمدت الترجمات على النص اللاتيني لمعاني القرآن الذي ترجمه كتننز. وفي سنة (١٦٤٩) قام قنصل فرنسا في الإسكندرية ديوري بأول ترجمة فرنسية لمعاني القرآن واعتمدت هى الأخرى إلى درجة كبيرة على الترجمة المذكورة.

أما أول ترجمة إنجليزية فقد وضعها جورج سيل في سنة (١٧٣٤).

ولقد أولى القديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م) اهتمامًا محدودًا جدًا بالإسلام الذي عده دينًا وثنيًا وليس مجرد هرطقة وتجديف وذلك في كتابه (الرد على الخوارج) لكنه لم يخرج كثيرًا عن إطار القوالب الذهنية التي سارت في الفكر الأوربي في عصره «إذ وضع الانتشار السلمي للمسيحية في مقابل ما أسماه بالانتشار الإكراهي للإسلام. ويقوم تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على أطروحة مؤداها أن محمدًا آمن بدعوته في بادئ الأمر الناس الجهلة البدائيون فقط، أولئك الذين يعيشون في الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أى تعليم أو عقيدة إلهية.

---

(١) اليكس جورافسكي «الإسلام والمسيحية» (ص٨٣).

وعن طريق هؤلاء البدو ـ الصعاليك أجبر محمد بقوة السيف بقية الناس في المنطقة على الامتثال إلى شريعته.

ويؤكد توما الأكويني المزاعم القائلة إن محمداً أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات والشهوات الحسية»[١].

وهناك مؤلفين مفصلين عن الإسلام كتبهما في القرن الثالث عشر للميلاد غليوم الطرابلسي: (مات بعد ١٢٧١م) وهما: (رسالة حول امبراطورية أحقاد إسماعيل المقصود العرب المسلمين، ونبيهم المزيف) و(محمد كتاب شريعة المسلمين).

يقول إليكس جورافسكى عن منهج غليوم في هذين الكتابين:

«ومع أن غليوم هذا يشوه بشدة صورة محمد وسيرته التى يلونها بكثير من الحكايات الخرافية المتناسبة مع عصر المؤلف ووسطه (الثقافي الأيديولوجي) إلا أنه في الوقت ذاته يشير إلى ملامح عامة وسمات عامة مشتركة بين الإسلام والمسيحية مباحث يعتقد أن عقيدة المسلمين قريبة من الإيمان للمسيحي وإنها غير بعيدتين كثيراً سواء عن بعضهما، أو عن الطريق المستقيم الصحيح»[٢].

ولكن أكبر هجوم جدلى على القرآن والإسلام هو ما قام به امبراطور بيزنطة جان كانتاكوزين في كتابيه: «ضد تمجيد الملة المحمدية»، «ضد الصلوات والتراتيل المحمدية» كان هذا الهجوم في الشرق وباللغة اليونانية، وهناك هجوم على القرآن باللغة السريانية والأرمينية والعربية.

وبسقوط القسطنطينية في يد المسلمين (١٤٥٣)، توقف الهجوم البيزنطى على القرآن والإسلام، وتولت أوربا المسيحية الأمر من بعد، فبدأ الكاردينال نيقولا دي

---

(١) إليكس جورافسكى ـ «الإسلام والمسيحية»: (ص٨٥: ٨٦).

(٢) «الإسلام والمسيحية: (ص٨٧).

كوسا (١٤٠١ ـ ١٤٦٤) مسيرة الهجوم الجديد، وكان وبتوجيه من البابا بيوس الثاني كتب نيقولا كتاب «نقد وتفنيد الإسلام» وكذلك رسالة هجاء في القرآن تحت عنوان «غربلة القرآن» وقسم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب.

في الكتاب الأول زعم إثبات حقيقة الإنجيل استنادًا إلى القرآن، وفي الكتاب الثاني عرض وتوضيح للمذهب الكاثوليكي وفي الكتاب الثالث زعم بعض التناقضات في القرآن وقد نشرت هذه الكتب مطبعة بلياندر في بال بسويسرا سنة (١٥٤٣).

وقام عدد من الآباء الدومينيكانيين والجزويت بنشر كتب هاجموا فيها القرآن والإسلام ومنهم:

ـ دينيس لوشارترو في كتابه «في مواجهة الخداع المحمدي» كولونيا (١٥٣٣).

ـ الفونس سبينا في كتابه «التحصين الإيماني» ليم (١٥٢٥).

ـ جان دي تيريكر يماتا في كتابه «بحث للرد على الأخطاء الرئيسية الخادعة لمحمد» روما (١٦٠٦).

ولكن أشد الكتب هجومًا على القرآن والإسلام ما كتبه «لوودفيجوماراتش» (١٦١٢ ـ ١٧٠٠) في كتاب «عالم النص القرآني» نشر في بادوا سنة (١٦٩٨)، وهو كتاب في مجلدين من الحجم الكبير عنوان المجلد الأول «مقدمة في دحض القرآن»، وقد نشر هذا الكتاب متفرقًا في أربعة أجزاء سنة (١٩٦١م)، وفيه تناول ماراتش حياة محمد حسب المصادر العربية، وتناول المجلد الثاني النص العربي للقرآن مع ترجمة لاتينية وشرح النواحي الغامضة في النص ثم نقده وتفنيده، وكان ماراتش يعرف السريانية والعربية والعبرية.

ويمكننا القول أن عمل ماراش هذا كان الأساس ونقطة الانطلاق للدراسات الجادة في أوربا عن القرآن وهو عمل حافل بالأخطاء والمجادلات الساذجة اللامعقولة، وللأسف تكررت نفس هذه الأخطاء وهذه التجاوزات في كل الدراسات المتصلة بالقرآن والتي قام بها المستشرقون الأوربيون خلال القرنين التاليين

لظهور كتاب ماراتش.

حقًا، فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر يبذل هؤلاء المستشرقون كل ما في وسعهم ليبدوا موضوعيين في كتاباتهم وفي جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا في المنهج اللغوي، لكن دون فائدة، ذلك لأن الدوافع الداخلية التى تضطرم بالحقد في قلوبهم ضد الإسلام وكتاب الإسلام المقدس ونبي الإسلام ظلت كما هي بل ازدادت تأججًا[1].

(١) راجع د/ عبدالرحمن بدوى «الدفاع عن القرآن والرد على منتقضيه» (ص:١٣ ـ ١٥).

الصورة الذهنية للغرب عن الرسول ﷺ عبر التاريخ

لا نستطيع أن نقــرر أن الصورة الذهنية المشاعة لــدى الغرب عن الرسول ﷺ هى صورة واحدة بل يمكن القول أن هناك تباينًا واضــحًا بالنسبة لتلك الصورة بين العقول الفلسفية والعلمية من جــهة، وبين الأدباء والفنانين ورجال الدين المتعصبين من جهة أخرى. ومن الطبــيعى أن تكون الصورة أكثر صدقًــا وإنصافًا لدى الفريق الأول عن الفريق الآخر.

أقول من الطبيعى لأن التفكير المعتمد على العقل لابد وأن يكون أقل مكابرة فى رفض الأنساق الــفكرية والعقائديــة التى تتخذ من العــقل السند المرجعى الــرئيسى لاكتســاب المصداقية. أما الفكر المنطلق من بؤرة الشــعور والتعصب فهو غــير قادر على الإنصاف، حيث تتمثل لديه الصورة المعــادية المسبقة لرموز الرؤى المضادة التى يوجبون أن تتكيف معها صورته.

ومن الطبيعى أيضًا أن تكون الصورة الذهنيــة لدى الفريق الثانى هى الأكثر تأثيراً فى الشعوب الغربية فتلك طبيعة الآداب والفنون فضلاً عن الخطابات الدينية. فليس للفكر تأثيرًا حاسمًــا فى مصائر الشعوب إلا إذا استند إلى قوة سيــاسية فإذا تخلف عنه هذا السند كانت الغلبة فى التأثير للأداب والفنون بصورة حاسمة.

أقول هذا فيما ينطبق على العقول الغربية منذ بداية القرن الثامن عشر أما ما قبل ذلك فقد تكون الصــورة الحقودة المشوهة المغــرقة فى الجهل هى السمــة العامة التى تبناها الغــرب عن الإسلام وعن هذه الصورة يــقول الدكتــور عبدالــرحمن بدوى: «خلال تتــبعى للمــفاهيم التى تبناها الأوربيــون حول نبى الإسلام مــحمــد انتابنى الذهول من جهلهم المطبق وعدوانيتهم الواضحة وأحكامهم المسبقة المتأصلة وتحزبهم

الطاغى ضد خصومهم.

وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل، والساذج ولكنه ينطبق أيضًا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين حتى أنه خلال القرون التى شهدت انطلاق الفكر الأوربى من القرن الثانى عشر وحتى القرن السابع عشر لم يكن لدى أى من هؤلاء المفكرين الشجاعة فى تحرى المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه.

فلا البرت الكبير ولا توماس الأكوينى ولا فرنسيس بيكون ولا بسكال ولا اسبينوزا فى القرن السابع عشر لم يحاول أى من هؤلاء أن يبذل جهدًا لفهم الإسلام مع أنهم كانوا يعرفون بشكل أو بآخر الفلاسفة والعلماء العرب ولم يدخروا وسعًا فى مهاجمة أرائهم ودينهم.

وقد شهد رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد يقول رينان: «لقد كتب المسيحيون تاريخًا غريبًا عن محمد... إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمدًا كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتى بالإلحاد فى رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره مرادفًا لكلمة كافر أو زنديق.

ولقد كان محمد فى نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحرًا وتارة أخرى فاجرًا شنيعًا ولصًا يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح فى أن يصبح بابا فاخترع دينًا جديدًا أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه وصارت سيرته رمزًا لكل الموبقات وموضوعًا لكل الحكايات الفظيعة».

ونبدأ ذلك بذكر ما قاله المؤرخ البيزنطى (ثيوفان) (٧٥١ ـ ٨١٨) فى كتابه «الأحداث التاريخية» حيث يحكى أن موت محمد كان بفعل عشرة من اليهود الذين تآمروا عليه بعد ما رأوا فيه المسيح حيث كانوا يرونه يأكل لحم الإبل (وهى شىء محرم فى الديانة اليهودية) ومع ذلك فقد ظلوا حوله من أجل الإضرار بالمسيحية. ثم يرسم ثيوفان ملامح حياة محمد قائلاً إنه ذهب إلى فلسطين وتحدث

مع اليهود والنصارى وتعلم منهم ما تحتويه الكتب المقدسة».

كما تأخذ الأسطورة منحنى آخر عند الراهب جيوبرت رئيس دير نوجينت (١٠٥٢ ـ ١١٢٤م)، فظهرت أسطورة جديدة تقول بأن بطريرك الإسكندرية حين مات أراد راهب أن يخلفه في وظيفته لكنه طرد من الكنيسة، فوسوس له الشيطان بأن يعلن بأنه المسيح، ولقد قام هذا الراهب واسمه (ماثوموس) وهى التسمية التى صار يكتب بها اسم محمد، بالزواج من أرملة غنية اسمها خديجة وأشاع أنه نبى بين حشد من الناس.

ولقد جاء (ماثوموس) ببقرة ووضع بين قرنيها كتابًا صغيرًا وأخفى هذه البقرة عن أتباعه، وفى أحد الأيام أخرج هذه البقرة أمام العامة وجعلهم يقرأون الكتاب الصغير الذى كان بين قرنيها، وقد وجدوا فى هذا الكتاب جملاً تحلل لهم لكل أنواع الفساد الأخلاقى، وتبيح لهم أكل كل اللحوم المحرم أكلها على الناس.

وسار «جاك دى فيترى» على درب من سبقوه فى الادعاءات المضللة عن نبى الإسلام، بقوله إن محمداً كان قسيسًا يدعى سوسيو، وقد أدانه بابا روما بتهمة الهرطقة فنفى إلى الجزيرة العربية، وهناك انتقم من أعدائه بادعائه النبوة وأنه استقى تعاليمه من كتابى العهد، وأضاف إليهما ما وسوس له به الشيطان.

وقد اقتبس من المصدر الأول حكاية فن تحضير الأرواح عند محمد ونوبات الصرع المتتابعة عند محمد وقد استلهم من المصدر الثانى حكاية البقرة وأوعية اللبن والعسل واليمامة المروضة على أن تهدل فى أذن محمد وكذلك اتصاله بالروح القدس وهذه أول مرة تجد تلك القصة فى (أسطورة محمد فى الغرب) وقد أخذ من المصدر الثالث قصة (سيرجيوس) وكيف أن هذا الراهب قد فسق بشكل رهيب فى ديره مما أدى إلى حرمانه وطرده ولجوئه إلى منطقة فى الجزيرة العربية فسماها (كوهين) حيث كان يعيش هناك شعبان شعب يعبد الأصنام وشعب اليهود.

وهناك تقابل (سيرجيوس) هذا مع محمد الذى يعبد الأصنام وأراد هذا الراهب بدافع من محاولة إرضاء الرهبان الذين طردوه من الكنيسة، حتى يصطلح معهم

فإنه دفع محمد إلى ترك عبادة الأصنام وتحويله إلى مسيحى نسطورى.

ومن هنا أصبح مخمـد أحد تلاميذه بعد ما أقنعه بالمسيحـية وقد تلقب باسم ما هوميت النسطورى حـيث تعلم من (سيرجيـوس) تعاليم العهدين القـديم والجديد وألف القرآن حـيث أدخل على تعاليم العـهدين القـديم والجديد بعض الأسـاطير والأكاذيب الأخرى.

ولكن اليهود حين رأوا أن محـمدًا يمكن أن يصل إلى المسيحية الحقيـقية فدسوا على محـمد أتباعًـا آخرين وحاولوا أن يعـلموهم المذهب الجديد (الإسـلام) حيث أضاف اليهود إلى القرآن تعديلات معينة وحذفوا منه بعض المقطوعات!!!

وهناك كاتب آخر هو (بيير باسكاسيو) (١٢٢٨ ـ ١٣٠٠م) وكان مطران غرناطة قد كتب مقالة طويلة حول شريعة المحـمدين. وقد صب جام هجومه على بحيرى الذى وصفه «بالراهب المنحرف»، وعن هذا الراهـب المنحرف يحكى القصة بشكل مبـالغ حيث يقول: لقـد كان بحـيرى راهبًا واسع العلم ولكنه انغـمس فى الفنون المتحررة وكان يطمح فى المراتب العليـا، ولكنه لم يحظ بالمجد فجاء إلى روما ولم يحصل على أى شىء مما كان يطمح فـيه فاشتد حنقه على الامـبراطورية الرومانية وأراد أن يثأر لنفسه ببذر بذور الشقاق بين المسيحين.

ولأنه كان يقرأ فى سفر باروخ (العهـد القديم) أن ذرية هاجر (أم إسماعيل ابن إبراهيم) أى العرب سيكونون تافهين وشهوانين وليست لهم أى قوة مادية فإنه سافر إلى الجزيرة العربية حيث توجد ذرية هاجر.

وقد وجد بين العرب شعبًا حديث الدخول فى المسيحية فنزل بينهم وعاش فاسقًا فى مكان منعزل وقد قـابل الشاب محمد الذى كان يحرس الإبـل وحينما رآه قوى البنية ذكيًا علمه كثيرًا من الأشيـاء وحين تأكد أن محمدًا قد بهر به وعده أن يكون سيدًا لمدينة تحتل مكانًا مرموقًا وطلب منه أن يطيعه فى كل شىء.

ولما رضى الراهب عن محمـد علمه وجعله خبيرًا فى علم تحـضير الأرواح وفى التنجيم كـما علمه اللغـات، وبعد وقت قليل ملك تلك المنطقـة دون أن يترك من

يرث الملك فاشتد النزاع بين الشعب وكان الشباب يشكون من قوة القانون بينما رجع الشيوخ إلى الراهب ليحل لهم هذا الخلاف فأجابهم بأنهم يجب أن يعود إليه بعد ثمانية أيام ريثما يجد حلاً لهم وفى هذا الوقت اتفق مع محمد ورتب معه حيلة اليمامة والثور الأبيض.

وعندما رجع الناس إلى بحيرى اقترح عليهم أن يختاروا للملك شخصًا يكون قادرًا على إيقاف الثور الذى يجوب الجبال. وقد روض محمد الثور وكان الوحيد الذى استطاع ذلك ثم كشف للجميع المتعب الظمآن نتيجة مطاردة الثور عن عين ماء صاف وضعه فى القرب وأخفاه بعناية. وهكذا اختار هؤلاء الناس محمدًا ليكون ملكًا عليهم ولما أصبح محمد ملكًا فرض على الناس قانونه وشريعته التى هى فى خدمة الله والشهوة حقًا وألف القرآن بمساعدة الراهب حيث كان مكتوبًا على قرن الثور بينما كانت اليمامة التى روضها محمد قد جعل الناس يعتقدون أنها ملك يبدو أنه يكلمه فى أذنه».

ومنذ تلك اللحظة تعلقت الأسطورة بالراهب الذى جاء إلى روما ليتقلد منصبًا دينيًا رفيعًا ولما أخفق أصبح محرضًا على الانشقاق الذى قد يكون الإسلام.

إذًا فالأسطورة تأخذ شكلاً جديدًا حين جعلت من ذلك الراهب معلم محمد أو سيده ولكن محمدًا بشخصيه ليس مذكورًا فى تلك الأسطورة الجديدة ولكنه مذكور تحت اسم نيقولا المتحرر. حيث نقرأ أن نيقولا، الذى هو محمد، كان واحدًا من سبعة من شمامسة كاردينالا للكنيسة الرومانية، وقد ألم بعلوم كثيرة، وكان عارفًا عجوزًا قد قارب على الموت فأرسل الكرادلة إلى نيقولا يطلبون منه القدوم إلى روما لتعيينه بابا بسبب قرب موت البابا الحالى.

ولما جاء نيقولاً إلى روما ومثل أمام البابا دون إبداء الاحترام والتبجيل الواجب نحوه، عند ذلك غضب عليه البابا وحدد إقامته، ولكن نيقولا غضب وارتحل إلى جزيرة العرب وصمم على الانتقام من البابا والكنيسة بتأليف عقيدة جديدة يخرب بها المسيحية ويبشر بها بين العرب.

وهناك رواية أخرى عند يعقوب الأكوينى ت ١٣٣٧ وهو صاحب كتاب «صورة العالم» حيث يزعم أن كل عقيدة محمد مقتبسة من النصارى قائلاً: «كان هناك رجل دين مسيحى يدعى نيقولا، أهين بشكل مشين من قبل كنيسة روما وتركها يائسًا وصبًا عن المسيحية وذهب إلى ما رواء البحار ولأنه رجل حاذق وماكر فقد فكر فى أنه يمكن أن يحيا حياة جديدة بالاحترام.

فى الواقع أن نيقولاً كان رجلاً مثقفًا وفصيحًا وبشوشًا وذا أخلاق دمثه، وقد وصل إلى فارس وأخفى عن الناس قداسته وامتناعه عن كل الشهوات وعفته وكان يسكن هذه المناطق مسيحيون ووثنيون. وكان الأولون متخلفون لأنهم لم يكن عندهم مبشرون بالمسيحية ولأنهم قد خرج من بينهم كثير من الهراطقة المرتدين.

وقد وجد نيقولاً المعونة من صاحبه الذى استطاع أن يسخره له الشيطان وهو تاجر وقائد إبل يسمى محمد كان يستطيع محادثة العالم كلهم من نصارى ويهود ووثنيين لأن مهمته تتطلب ذلك. وكان ذا ذكاء حاد وكان متعلمًا ويعرف عادات أهل تلك المناطق.

وقد تحالف نيقولا رجل الدين مع محمد ثم تحالفا مع رجل آخر يدعى «سيرجيوس» الذى كان راهبًا مسيحيًا وقد توصلوا إلى تأليف شريعة جديدة مضادة للمسيحية حيث نعموا بحياة بهيجة ودعوا أولاً الغجر وأهالى الجبال المتخلفين قائلين لهم: «لا نريد أن يقال عنكم أنكم غجر أى أولاد الجارية» هاجر، ولكن سارين أبناء سارة. ولأن محمدًا كان ذا هيبة مما حدا بصاحبيه أن يسمياه «نبى الله» وهكذا دعاه البدو ساكنى الجبال. ولذلك اخترع خدعة اليمامة. ولقد حاول محمد التودد إلى اليهود والنصارى حين مدح شريعتهم ووضعها على قدم المساواة مع شريعته.

وقد انتشرت تلك الأسطورة الأخيرة بشكل واسع بين الأوربين حتى القرن الثامن عشر. ويقول «بابل» فى كتابه «القاموس التاريخى والنقدى» مقال «محمد» مجـ ٣ ص ١٨٦١، سوتردام - ١٧٢٠، يقول عن هذا الموضوع: «إن هناك عددًا

لا يحصى من الناس يعتقدون أن نعش محمد كان من حديد وأن هذا أحدث معجزة كبرى فى نفوس أتباعه، فإن هذه الأسطورة أضحكتهم عندما علموا أن النصارى يحكونها على أنها حدث مؤكد».

بعد هذا العرض التاريخى، يلخص ذاكونا هذا الخلط الكبير الذى وقع فيه الأوربيون لمدة أكثر من أربعة قرون حيث يقول:

«فى الواقع إن السيد محمد ومستشاره يأخذ أحيانًا شخصية بحيرى ومرة أخرى شخصية ورقة بن نوفل فى الأسطورة الإسلامية ومرة يبدو مؤمنًا مدافعًا عن المسيحية ومرة أخرى هرطقى أريانى أو يعقوبى أو نسطورى حسب الرواية وهو يعمل ليستجدى عطف أتباعه الذين أبدعوه، وحسب رواية أخرى يعمل على الثأر لنفسه. كما أنه دائمًا راهب، أو بطريرك أو كاردينال: أما اسمه فهو بحيرى أو سيرجيوس.

كما أن محمدا نفسه يقدم لنا مرة على أنه وثن ومرة أخرى على أنه مسيحى يدعى أوكين، أو بلاجيوس أو نيقولا. وهو ساحر، وأمى وعالم فى بولونيا: وقد جاء من القسطنطينية، أو من أنطاكية أو من أزمير، أو من مناطق وثنية أخرى أو مناطق مسيحية، وهو مرة عربى، ومرة أسبانى، ومرة أخرى رومانى من عائلة كولونا، ومرة يختلط اسمه باسم معلمه، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذى كان على وشك أن يصبح بابا[1].

ثم نأتى إلى ما كتبه دانتى عن الرسول ﷺ فى كوميدياه الإلهية قد يكون أشهر تلك الصور وأكثرها تأثيرًا على الإطلاق فقد «وضع نبى الإسلام محمد وابن عمه الخليفة الراشدى الرابع على بن أبى طالب فى الخندق التاسع من الحلقة الثامنة من الجحيم الذى يضم مثيرى الصدامات والانشقاقات الدينية والسياسية «الذين يزرعون الفتن فيحصدون الأوزار لقد ظهر محمد بعد المسيحية فحمّل بذلك العالم انقسامًا جديدًا. أما على ففى عهده انقسم الإسلام إلى ثلاثة أجنحة متعادية كبرى

---

(١) راجع عبدالرحمن بدوى مرجع سابق (ص٥ ـ ١٣).

ولهذا فهو المذنب ـ كما يعتقد دانتي ـ في تقسيم الإسلام وشق صفوفه»[1].

لقد كانت الصورة التي رسمها دانتي للرسول ﷺ من البشاعة إلى الدرجة التي لا نستطيع نقلها إلى القارئ ولكننا لفهم الأحقاد الغربية على الإسلام في العصور الوسطى والتي ظلت مترسبة لدى البعض حتى الآن نذكر تلخيصًا لها في التالي «يرسم دانتي صوة تجسد تركيبًا سلاليًا متصلبًا من الشرور حيث العقاب ـ وهو أيضًا العقاب الأبدي ـ عقاب مثير للاشمئزاز من نمط فريد فهو أبدًا يقطع إلى نصفين مثل برميل تمزق أضلاعه كما يقول دانتي»[2].

وتقول الدكتورة زينات بيطار عن تأثير هذه الصورة الذهنية لدانتي على الشعوب الأوربية: «إن تأثير دانتي على نشؤ الثقافة القومية الإيطالية وعلى منظومة الفكر الأوربي للنهضة شمل أيضًا تأثيرًا على مجمل فناني عصره في علاقته بالإسلام دينًا وفلسفة. وتأثير دانتي لم يفقد وزنه حتى القرن التاسع عشر»[3].

وهناك صورة أخرى وضعها «راهب دومنيكاني (معاصر لدانتي) زار بغداد وخرج على الأوربين بالحكاية الخرافية التالية: بما أنه لم تكن للشيطان قدرات ذاتية كافية لوقف انتشار المسيحية في الشرق، اخترع «كتابًا» يمثل حلقة وسطى بين العهدين القديم والجديد، واستخدم لأجل هذه الغاية الشريرة «وسيطًا» من طبيعة الشيطان ذاته، أما الكتاب فهو القرآن بينما الوسيط فهو «محمد» الذي يجسد دور المسيح الدجال»[4].

ولقد استخدمت صوة الحمامة التي ترمز للروح القدس في المسيحية (إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث: ٢٢) بدلالة سلبية مغايرة لدلالتها التقليدية في المسيحية «حيث نشرت على نطاق واسع في أوروبا الحكاية الأسطورية القائلة إن محمدًا

---

(١) اليكسي جورافسكي ص ٦٧.

(٢) د. خلف محمد الجواد المترجم لكتاب جوارافسكي ـ الهامش: ص٦٧.

(٣) الاستشراق في الفن الرومانسي : ص ٣٣.

(٤) اليكسي جورافسكي ـ الإسلام والمسيحية : ص ٤

درب الحمامة لتنقر حبوب القمح من أذنه وبذلك أقنع العرب، إن تلك الحمامة هى رسول الروح القدس الذى كان يبلغه الوحى الإلهى.

وعمت هذه الحكاية المختلقة إلى درجة أن الشاعر الإنجليزى جون ليدهيت (القرن الخامس عشر)، الذى وضع سيرة لحياة محمد سمى لون تلك الحمامة (حليبيًا ـ أبيض).

وردد هذه القصة مؤرخون أوربيون مثل وولتر رولى (المعاصر لشكسبير مؤلف كتاب التاريخ العالمى) بل إننا نقرأ لشكسبير ذاته فى «هنرى الرابع»، «الفصل الأول، المشهد الثانى» كيف أن الملك كارل الثانى يتوجه إلى جان دارك صارخًا: «ألم تلهم الحمامة محمدًا . . . أما أنت فإن النسر ربما ألهمك»[1].

ونصل الآن إلى القرن السابع عشر.

ونبدأ بإلقاء الضوء على فرية مضحكة مخترعة: وعلى الأقل مكررة من قبل «فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، وهو داعية المذهب التجريبى الشهير. وهو يحكى فى أحد مقالاته والمسمى «الخدعة» يحكى مثلاً أن محمدًا قال للعرب ذات يوم أنه يستطيع أن ينادى الجبل ليأتى إليه. وقد كان الجبل بعيدًا، ولكن بعد أن ناده محمدًا لم يأت ولم يتحرك وهنا قال محمد لهم: «إذا كان الجبل لم يأت إلى محمد فإن محمد سيذهب إلى الجبل» وإننى أتساءل كيف يمكن لرجل يدعى أنه يقيم أسس المنهج التجريبى وقواعده أن يعتقد فى حقيقة تلك الفرية المختلقة! وللأسف فإن بعض السفهاء يرددون تلك الأسطورة حتى يومنا هذا.

ثم نأتى إلى هرجو دورجروت (وهو باللاتينية ادوجروتيوس) وهو الكاتب الشهير للرسالة المسماة (قانون الحرب والسلام)، أمستردام (١٦٣٠)، وقد كتب أيضًا «رسالة عن حقيقة الدين المسيحى» باللاتينية وقد ظهرت عام (١٦٢٧)، وقد حاول فى الكتاب السابع أن يدحض الإسلام ويثبت «تميز الدين المسيحى على دين محمد» على حد قوله. وما يهمنا هنا هو التصور الخاطئ الذى يبدو لديه عن

---

(١) اليكس جورافسكى ـ الإسلام والمسيحية : ص٧٦.

الإسلام وعن محمد، وهذا أهم ما قاله فى هذا الصدد:

١ـ يزعم أن محمدًا قال: «إنه جاء ليتبعه الناس ليس بسلطان معجزاته ولكن بقوة جحافله (ص٢٩٦).

٢ ـ إذا كان محمد قد حاز الشهرة فإنه، كما يقول جروت ـ قد اشتهر بسرقاته واغتصاباته وفواحشه (ص٢٩٥).

٣ ـ يصف دين محمد هكذا «إن هذا الدين لم يأت إلا ليخضب الأرض بدماء مخالفيه، وأنه دين خارجى، قائم على عدد كبير من الطقوس، كما أنه يفرض على الناس اتباعه، كما يجب الخضوع له بطاعة عمياء ودون مناقشة. وأن الكتب التى تحتوى على الإسلام هى كتب مقدسة. وقراءتها محرمة على الشعب، وهذا التحريم ليس عادلاً لأنه يصيب بالشك المبرر فى أنه يخفى نظامًا متعسفًا يمكن أن تكشفه القراءة فى كتبه»[1].

ولا يهمنا فى شىء للرد على كل هذه الأساطير المضحكة ولكن نكتفى فى الرد عليها بما كتبه كاتب هولندى هو أثريان رولاند (١٦٧٦ ـ ١٧١٨) وذلك فى قوله: «إن أغلب هؤلاء الكتاب والذين تمدحهم بحماس هاجموا دين محمد بأقل مما هاجموا أوهامهم... وقد وقعوا فيما نسميه السفسطة العادية وهى الجهل بالقضية المطروحة أى إثبات ما ليس من المفيد إثباته ومهاجمة الآخرين بشعور من الوهم ينم عن عقلياتهم أو كما قال فيلوستراد» عن «كاليجولا» :

«إنه يعيد قصص العدم» وقد كان كاليجولا أميرًا مغفلاً صف جيشه فى إحدى المعارك على شاطئ المحيط كما لو كان فى حملة مشهودة انتصر فيها على انجلترا ثم وضع الحراب وبقية آلات الحرب كما لو كان سيقفز عليها ثم أعطى الأوامر لجنوده فجاءة بأن يجمعوا المحار ويملؤا به قيعانهم وجيوبهم، ثم أضاف إلى هذا العبث مجدًا أكثر عبثًا وهو نقل هذا المحار من المحيط إلى مقر السلطة والبلاط.

---

(١) راجع عبدالرحمن بدوى دفاع عن محمد: (ص٢٢ ـ ٢٣).

وهكذا كتـابكم الذين يهاجمـون المسلمين فـيهم يوجهـون أسلحتهم بكثـير من العناية والحماس ليس ضد أعداء حقيقيين ولكن ضد خصوم قد انتصروا عليهم لأنه لا شخص يدخل معـهم حقًا فى خصام، ولذلك يمكنهم أن ينتصـروا كما يريدون وذلك بجمع الغنائم المناسبة لهذا الانتصار مع تصفيق كل من على شاكلتهم كما لو كانوا قـد دافعوا دفاعًـا مجيـدًا عن الدين المسيحى ضـد كل سباب العرب وكـفر الشرق: ولكن العقلاء يمكنهم أن يضحكوا على هذه الانتصارات الكاليجولية. . .

«إن هدفى لم يكن خفاء ولا حتى تلفيق حقائق عن دين أكرهه ولا حتى أنتصل به بشكل عـدائى أو ودى. فمن يحكم على هكذا يخطئ ولكن الـهدف هو شىء من العدل والنزاهة. فقـد رأيتنى مضطرًا للدفاع عن هذا الدين خاصـة فى الأشياء التى نسبت زورًا وبهتانًا إليه والتى تخجل وجه الحقـيقة حين تعتمد على الأكاذيب والافتـراءات. والهدف هو إيجـاد شخص يجب أن يعكس هذه الأكـاذيب التى لا تستند على أى شىء من الشرعية، وقد ألحقت بالمسلمين أوصافًا كثيرة مثل «خرقاء» أفظاظ، حمر وحشـية، مجانين، مغفلين، وحتـى شياطين، وأريد أن يرددوا معى الحقـائق المضادة التى تعـرى هذه الأكاذيب التى جعلتنـى ألاحظ أن الأيام تثبت أن العالم يريد أن يعيش مخدوعًا ومحكومًا بالأحكام المسبقة [(١)].

ويعلق الدكتور عبدالرحمن بدوى على كلام رولاند هذا فيقول:

ويتضح من إعلان النوايا هذا:

(أ) أن رولاند لا يقصد بهـذا الكتاب الدفاع عن محـمد وعقائد المسلمـين فهو أبعد من ذلك.

(ب) ولكنه يريد أن يصـحح الأكاذيب والأحكام المسـبقة التى نسـجهـا الكتاب الأوربيون فى موضوع محمد والقرآن والإسلام حتى يستطيع مهاجمة الإسلام آخذا من المسلمين فرصة الدفاع بإنكار هذه الأكاذيب والافتراءات التى اختلقها المسيحيون

---

(١) المرجع السابق (ص٤٦ ـ ٤٧).

فى موضوع المسلمين والإسلام. فإذا رفض رولاند مثلاً الإتهام الذى ساقة الكتاب الأوربيون بدءًا بيوحنا الدمشقى وهو أن محمدًا خلط فى القرآن بين مريم أخت موسى ومريم أم عيسى فذلك لأنه كما يقول: «حتى تكون فى حالة جيدة ووضع سليم نحن المسيحيين فى حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية ومقنعة حتى نهاجمهم من الآن فصاعدًا بشكل أكثر وضوحًا وثقلا بعدد من الحجج.

(ب) باختصار، لم يكن لرولاند من وراء كتابه هذا وكل أعماله سوى نصرة الحقيقة والعقيدة الإنجيلية أو شىء مشابه لذلك وهو مجد إله واحد حق حيث ضيف فى الطبعة الثانية «الأب والابن والروح القدس، لهذا الثالوث يجب أن تكون العاقبة وكل كلامنا وجميع أفعالنا (السابق).

إذا لا يمكن أن ينخدع أحد فى نية رولاند وهى: أنه يتعشم أن يهاجم الإسلام بهدم الأساطير التى اخترعها الكتاب المسيحيون والأوربيون وذلك لدحض وتفنيد حياة محمد ودينه إنه يضع نفسه فى عداوة مع الإسلام ولكنها عداوة عالم ذكى بدلاً من المتنقصين من قدر الإسلام وهم كاذبون وحمقى.

بعيدًا عن نية رولاند فإن كتابه قد ساهم بعد ذلك فى تنوير الأوربيين فى موضوع الإسلام. ولذلك لن يكون بمقدور أحد أن يجرؤ على ترديد الأساطير المتراكمة والأكاذيب التى نسجت فى أوربا منذ عشرة قرون حول محمد دون أن يخاطر بأن يصبح أضحوكة المثقفين الأمناء.

فولتير والرسول:

كان فولتير قد حصل على إذن رسمى من الكاردينال فليرى لمسرحيته عن الرسول ﷺ فأجابه إلى طلبة. وكان هذا العرض الأول (١٩ أغسطس) الحدث الأدبى لذاك العام، وشهده كثير من الحكام، ، ورجال الدين والشعراء بالإضافة إلى الجمهور الذى اكتظ به المكان، وبدا أن الجميع راضون عن المسرحية باستثناء نفر من رجال الدين الذين زعموا أن الرواية ليست إلا هجومًا عنيفًا على المسيحية وانضم فريدون وديفونتين وغيرهم إلى هذه الشكوى وعلى الرغم من أن الكاردينال أحس

بأن هؤلاء النقاد يسيئون إلى قضيتهم، فإنه بعث إلى فولتير برسالة سرية ينصحه فيها بسحب الرواية، وعاد فولتير وإميلى أدراجهما إلى بروكسل، وقد استبد بهما الغضب لخيبة أملهما.

ويبدو أن فولتير أراد أن يهاجم المسيحية من خلال هجومه على الرسول ﷺ في هذه المسرحية كما فهم ذلك الكثير من رجال الدين فى فرنسا حينذاك فلقد صور الرسول مخادعًا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى الجهلاء ويستغل إيمانهم فى استثارة هممهم فى القتال بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذى يقاوم هذا الغزو.

وعندما يتردد سعيد يؤنبه محمد فى عبارات بدت لبعض المستمعين وكأنها تعريض برجال الدين المسيحى، فهو يقول: وأنت أيضًا تتردد أيها الشاب الجرئ، إنه لما يتنافى مع الدين أن تتردد.

إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الإيمان بمحمد، إن عليك أن تمتثل. إن إرادة الله تقضى بذلك. ألا تعلمون وهو الذى امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه وتخلى عن ولده العزيز، إن الله العلى القدير نفسه هو الذى يطلب إليكم أن تصحوا، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتل من ذا الذى يتجرأ فيتردد فى تنفيذ أمر الله إذا دعاكم إلى القتال، فاضربوا إذن فوق الأعناق.

إن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم فى الدار الآخرة ويقتل سعيد الشيخ العجوز الذى يتبين وهو يلفظ أنفسه الأخيرة أن القاتل أبنه. وهذا بطبيعة هجوم من فولتير على استخدام الدين ذريعة لسفك الدماء وشهر نار الحرب وهذا ما قصد إليه فولتير. وفى رسالة فردريك ضرب أمثلة لجرائم ارتكبت باسم الدين منها قتل وليم أروانج وهنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى. فرنسا ولكنه أنكر أن المسرحية هجوم على الدين بل إنها دعوة إلى استمساك المسيحيين بمبادئ المسيحية الحقة[١].

---

(١) راجع ول ديورانت مج٢٠ ج٢.

ولا ندرى كيف سمح فولتير لنفسه (وهو الذى يعدونه رمزًا للتنوير فى فرنسا أن يتجرأ بالتشنيع على شخصية مثل شخصية الرسول ﷺ لمجرد استخدام ذلك فى إطار معركته مع الكنيسة فى فرنسا.

ولقد كتب هو نفسه معترفًا بذلك إلى بعض أصدقائه وهو يقول: .«إننى أصور محمدًا معتصبًا، عنيفًا ومحتالاً. . . وعارًا على الجنس البشرى الذى من تاجر أصبح نبيًا مشرعًا وملكًا. . «محمد» - إنه يجسد خطر التعصب. . .»[1].

(١) جورافسكي مرجع سابق: ص١٠٠.

المستشرقون وارتباطاتهم بالمخططات التبشيرية والإستعمارية

اجتاحت بلدان العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر موجة قوية من الأوربين شملت العسكريين والتجار والمبشرين والإداريين والعلماء ذوى الاختصاصات المختلفة فانفتحت أمام الغرب إمكانات عريضة للتعرف على هذا العالم. وغدت دائرة معارفهم عنه تتسع بسرعة كبيرة.

وظهرت فى أوربا ذاتها معطيات وحقائق جديدة ووثائق ومخطوطات تكتشف للمرة الأولى وصلت إليها فى الغالب الأعم منها كنتيجة للنهب الذى مارسته الحملات الاستعمارية لآثار البلاد وثرواتها الثقافية، ومن هنا نمى باطراد علم الإسلاميات الغربى أو ما يسمى بعلم الاستشراق.

والحديث عن علم الإستشراق يطرح إشكالية التنازع بين رؤيتين لهذا العلم:

رؤية غربية يدعمها العلمانيون المتغربون عندنا وتعنى قيام هذا العلم على أسس الاستقصاء فى البحث والحياد والإنصاف العلمى.

ورؤية إسلامية مضادة يدعمها بعض العقول الموضوعية فى الشرق والغرب، وتعنى انطلاق هذا العلم بدافع تحقيق غايات استعمارية وتبشيرية وتحركه وقف أطر تلك الغايات ومن ثم ضيق ومحدوية قاعدته العلمية.

يقول أليكس جورافسكى: «يمكن القول بموضوعية كاملة إن «علم الإسلاميات» ولد فى أحشاء المخططات الاستعمارية أو على الأقل تزامن مع ارتفاع الأصوات الأوربية الداعية إلى «استعادة السيطرة على الأراضى المقدسة من أيدى مغتصبيها المسلمين» عن طريق اتباع حملة من الإجراءات العلمية التطبيقية، فى مقدمتها إنشاء

المدارس العربية فى الغـرب كشرط لتحقيق المعرفـة الدقيقة لعقلية العـرب والعقيدة الإسلامية للدوائر الاستراتيجية الغربية.

إن التـفوق العـسكرى والتقنـى والاقتـصادى غـير كـاف من أجل إدارة البلدان المستعمرة وبغـية الاحتفاظ بالتأثير اللازم فى البلدان التابعة. فالمصـالح الاستعمارية مجموعـة محددة ومتكاملة من المعارف والمعطيات حـول تلك البلدان. فإلى جانب الاستشراق العملى [يقصد الاستعمار]... تطور ذلك الفرع عن العمل الاستشراقى الذى أطلقت عليه تسمية الاستشراق العلمى»[1].

ولا يكتفى جورافسكى بذلك بل يـرى أن الاستشراق مثل إمعاناً أكبـر لما قدمته خرافات وأساطير العصور الـوسطى عن العالم الإسلامى المتأثرة بالرؤية الأرثوذكية الشرقية وذلك من حـيث إضفاء الصيغة العلمية على تلك الأضـاليل القديمة حيث يقول فى ذلك:

«فى الوقت الذى يؤكد فـيه «علم الإسلامـيات» الغربى سعـية الحثـيث لتفكيك «الأساطير» و«الحكايات الخـرافية» و«القصص السخيفـة» المتداولة فى التراث الدينى الشرقى (الإسـلام والمسيحـية الأرثوذكيـة)، نجد أن «علم الإسلامـيات» هذا شكل بدوره عدداً ضخـماً من الأساطير والخـرافات الغربية الجـديدة حول الإسلام، ولم يفعل شـيئـاً مهمـا اللهم إلا أنه أضفى صـبغـة علميـة على الأضاليل القـديمة، والخرافات والقوالب النمطية العتيقة عن الإسلام.

ومن هنا يلاحظ أى باحث موضـوعى أن الأغلبية المطلقـة من مستشـرقى القرن التاسع عشـر وأوائل القرن العشرين لم يتـخلصوا من المواقف المسبقة الموجـهة ضد الإسلام، سواء أكان عـداؤها صريحًا مباشراً وعنيفًا، أم كـان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية»[2].

---

(١) الإسلام والمسيحية: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) المرجع السابق.

ويرى المفكر العربى إدوارد سعيد فى كتابه الشهير (الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء) إن الاستشراق يمثل ردود فعل الغرب المشروطة بمعطيات وخلفيات تاريخية دينية وفكرية واقتصادية تجاه الشرق وذلك انطلاقًا من طبيعة تصور الغرب للشرق الذى لم يكن فى وعى الأوربيين الآخر الخارجى فقط، بل امتدادًا أيضًا للشاذ والمنحرف والمجنون والمستضعف.

واعتبر إدوارد سعيد الاستشراق «أسلوب غربى للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه... وقد شكل الاستشراق الحضارة الشرقية فى كوكبة من الأفكار الشرقية كالاضطهادية، الأبهة الشرقية، القوة الشرقية، الحواسية الشرقية»(١).

ويتحدث إدوارد سعيد عن الاستشراق والإعلام الغربى فى صنع المزيد من الوعى الزائف المتبادل بين الجانبين فيقول: «فى نهاية القرن الثامن عشر على أقل تقدير سيطر على ردود الفعل الغربية نحو الإسلام نوع من التفكير المختزل والبسيط فى جوهره وهذا النوع من التفكير لا يزال إلى يومنا هذا حيث نملك القدرة على تسميته بالاستشراق»(٢).

ويشرح ذلك فى موضع آخر فيقول: «هناك فى وعى الجمهور الثقافى ذلك الموقف القديم من الإسلام والعرب والشرق بشكل عام وهذا الموقف أسميه الاستشراق وصورة الإسلام هى واحدة ثابتة لا تتغير من أية زاوية نظرت إليها، ومهما تكن المادة التى تعرضها، يستوى فى ذلك الكتب المدرسية المقررة فى مادة التاريخ والأشرطة الهزلية والمسلسلات التلفزيونية والأفلام الكوميدية والروايات الحديثة التى نالت ثناء النقاد كرواية ف. س بنبيول وتستمد مادتها من المفهوم القديم للإسلام ولذلك يكثر رسامو الكاريكاتير من تصوير المسلمين كموردى نفط وإرهابيين وغوغاء متعطشين للدماء وتجد إضافة إلى ذلك أن الهامش المتاح

---

(٢) الاستشراق : ص٣٩.

(٣) الإسلام الأصولى: ص ٣٤.

للتعاطف مع الإسلام هو هامش ضيق جدًا سواء فى ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام أو فى نطاق البحث والنقاش حول غير الغربيين بشكل أخص.

والمجال يضيق بالحديث أو حتى مجرد التفكير المتعاطف مع الإسلام، ناهيك عن محاولة عرضه أو عرض أى شأن إسلامى عرضًا متعاطفًا ولو طلبنا تسمية اسم كاتب إسلامى حديث، فمن المرجح أن يورد أغلب الناس اسم جبران خليل جبران الذى لم يكن مسلمًا، أما الخبراء الأكاديميون المختصون بدراسة الإسلام فقد تناولوه ضمن إطار أيديولوجى مصطنع أو إطار ملئ بالانفعالات العاطفية والتحيز الدفاعى بل الاشمئزاز، وقد جعلت هذه الخلفية وهذا الإطار فهم الإسلام أمرًا عسير المنال»[1].

ويضيف فى موضع آخر فيقول: «لا نبالغ بالقول إن العرب والمسلمين تتم تغطيتهم الإعلامية أساسًا بوصفهم موردى بترول أو إرهابيين محتملين، أما تفاصيل الحياة العربية ـ الإسلامية والكثافة الشعورية الإنسانية وزخمها النابض فلم يدخل إلا النزر اليسير منها حتى فى وعى أولئك الذين احترفوا تغطية العالم الإسلامى والإبلاغ عنه»[2].

ويتساءل إدوارد سعيد: «لماذا الدراسات الشرق أوسطية؟ ولحساب من يتم إجراؤها. إن إلغاء الوعى المنهجى ينسجم كل الانسجام مع قوى فى السوق والتى تمثلها الحكومات والشركات العملاقة والمؤسسات فالأمر ببساطة أن المرء لا يطرح السؤال لماذا هو يفعل ما يفعله إن كان الزبائن المحتملون المعجبون أو على الأقل المحتمل قبولهم ورضاهم متوفرين والأدهى من ذلك أن الباحث عن التفكير يكون منطلقًا من الإقليم والناس الذى تجرى حولهم الدراسات ومتخذًا منهم أطرًا لبحثه.

فالإسلام إن كان هو موضع الدراسة وموضوعها الأساسى لا يكون محاورًا بل

---

(٢) المرجع السابق ص٣٦ ـ ٣٧.

(١) المرجع السابق ص٥٩.

يكون سلعة وتكون المحصلة الإجمالية نوعًا من الثقة المؤسساتية غير الجديدرة فعلاً بالاعتماد»[١].

ولكن الدكتورة زينات بيطار فى كتابها (الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى) ترفض التعميم فى هذا الموقف من الاستشراق حيث ترى أنه «قد يكون الدكتور سعيد محقًا من ناحية عدم توازن القوى المادية فى العلاقة بين الغرب والشرق. فالغرب هو القوى عسكريًا وفكريًا (سياسيًا واقتصاديًا).

ولكن الشرق آنذاك كان قد انفتحت كنوز ثقافته أمام الغرب فولد لديهم الشعور بالنقص والعجز عن إنتاج ثقافات روحية مماثلة فاعلة فى العملية الثقافية لتاريخ الثقافة العالمية»[٢].

وتشرح هذه الرؤية بشكل أكبر فى موضع آخر فتقول: «فكما شكل الشرق معينًا لا ينضب للثراء المادى الأوربى ومشاريعه الاستعمارية فإن حضارات الشرق قد شكلت ملاذًا من الأزمات (الروحية ـ الثقافية) التى كانت تهب على أوروبا بين فترة وأخرى.

ولا يجوز استقراء ظاهرة الاستشراق على أنها سياسية استعمارية فحسب ولم تكن ترى فى الشرق إلا ما تتوق إليه. بل يجب أخذ أية ظاهرة علمية أو ثقافية من مختلف جوانبها وتعدد أطرها ووجوهها بالابتعاد عن التعميمية خشية الالتباس على الموضوعية فى الدراسة والبحث ولذا يشترط علينا تعدى ضيق الرؤية «الاستعمارية» للاستشراق والبعد عن التقارب التسجيلى القائم على السرد والوصف والتوثيق والإقلاع عن عادة وضع المستشرقين فى موضع اتهام واحد»[٣].

ومع أننا قد نتفق مع الدكتورة زينات بيطار فى أن أمر الاستشراق لابد أن يتعلق ببعض الاستثناءات إلا أنه لا شك يكون الاستثناء الذى يثبت القاعدة. . قاعدة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الاستشراق الفرنسي ص٢٥.

(٣) المرجع السابق : ص ١٤.

التيار الاستعمارى والتبشيرى الأساسى الذى يقود الاستشراق.

وفيلسوف وعالم فـذ كالدكتور عبد الرحمن بدوى والذى نال شـهادة الدكتوراة فى الفلسفة من الغرب وعاش عقودًا طويلة من عمره بين جوانبه ويشهد له فلاسفته باتسـاع علمه وعمـق فكره من الصعب اتهـامه بتـجافى الموضـوعية وغلـبة دوافع التعصب عليه عندما يشرح حال هؤلاء المستشرقين فيقول:

«كان أشد الكتب هجومًا على القرآن والإسلام ما كـتبه «لورد فيجوما ماراتش» (١٦١٢ ـ ١٧٠٠) فى كتـاب «عالم النص القرآنـى» نشر فى بادوا سنة (١٦٩٨)، وهو كتاب فى مـجلدين من الحجم الكبير عنوان المجلد الأول «مـقدمة فى دحض القرآن»، وقد نشر هذا الكتاب متفـرقًا فى أربعة أجزاء سنة (١٩٦١م)، وفيه تناول ماراتش حـياة محـمد حسب المصادر العـربية، وتناول المجلد الثـانى النص العربى للقرآن مع ترجمة لاتينية وشرح النواحى الغامضة فى النص ثم نقذه وتفنيده، وكان ماراتش يعرف السريانية والعربية والعبرية.

ولقد كتب نالينو دراسـة حول مصادر المخطوطات العربية التى قـام عليها عمل لودوفيجو ماراتش حول القـرآن، ويمكننا القول أن عمل ماراتش هذا كان الأساس ونقطة الانطلاق للدراسات الجادة فى أوروبا عن القـرآن وهو عمل حافل بالأخطاء والمجـادلات الساذجـة اللامـعـقولة، وللأسف تـكررت نفس هذه الأخطاء وهذه التجاوزات فى كل الدراسات المتصلة بالقرآن والتى قـام بها المستشرقون الأوروبيون خلال القرنين التاليين لظهور كتاب ماراتش.

حقًا، فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عـشر يبذل هؤلاء المستشرقون كل ما فى وسعهـم ليبدوا موضوعـين فى كتاباتهم وفى جـعل كتاباتهم أكثـر دلالة وأكثر جدية ومـوضوعيـة، وأكثر تدقيـقًا فى المنهج اللغـوى، لكن دون فائدة، ذلك لأن الدوافع الداخليـة التى تضطرم بالحـقد فى قلوبهم ضـد الإسلام وكـتاب الإسـلام المقدس ونبى الإسلام ظلت كما هى بل ازدادت تأججًا.

وبرغم أن هؤلاء الكتـاب قد توفـرت لهم أدوات فـهم اللغات منذ بداية القـرن

الأخير حتى يومنا هذا، وإضافة إلى توافر نشر المخطوطات، إلا أنهم أصروا على تقديم نظرياتهم الخاطئة، من خلال تصوراتهم الزائفة للقضايا الوهمية التى طرحوها حول القرآن وطرحوا نتائج زائفة توصلوا إليها.

واستطيع أن ألخص سبب التردد الذى وقع فيه هؤلاء المستشرقون بالتالى:

١ ـ جهل هؤلاء المستشرقين باللغة العربية.

٢ ـ ضحالة ونقص معلوماتهم عن المصادر العربية.

٣ ـ سيطرة الحقد على الإسلام الذى ورثوه ورضعوه منذ طفولتهم على عقولهم وتسببه فى عماء بصيرتهم.

٤ ـ نقل المستشرقين الأكاذيب حول القرآن والإسلام بعضهم من بعض وتأكيدهم لها وتمثل ذلك فى كتابات كل من هرشفيلد، وهورفيتس، وسباير.

٥ ـ المشابهات الخاطئة التى دفعت السطحيين منهم إلى إصدار أحكام سريعة «نقل ـ اقتباس ـ تقليد ـ تأثير وتأثر»، وأن ليس فى القرآن إلا توافق ظاهرى وهذا هو حال نولدكه، ومرجوليوث، وجولدتسهير، وشفالى.

لكن نولدكه تراجع عن آرائه التى فى كتاب «تاريخ القرآن» طبعة جونتخن (١٨٦)، ورفض إعادة طبع الكتاب.

٦ ـ الالتزام التبشيرى شديد التعصب وتلك حالة وليم مويير، وزويمر»[١].

---

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه ص ١٤ ـ ١٦.

العقل والعلم
بين المسيحية والإسلام

(بابوات الكنيسة الكاثوليكية)

أولاً: نفوذ البابوات وجمودهم الفكري:

أما عن وضع البـابوات في ذلك الوقت فمنذ البـداية تقريبًا احـتجبت الحـقائق الدينية والمثل العليا التي دعا إليها المسيح عـيسى عليه السلام واستترت وراء المبادئ والتقـاليد الطقوسـية الراجعـة إلى عصر أقـدم وإلى طراز أدنى عقلية. وقـد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريبًا على أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة. إذ أنها أوقعت نفسها في شراك التقليد العتيقة الخـاصة بالتضحية الإنسانية، وبالتطهر الدموي لدى «المثراتية»، «ديانة تطورت عن الزرادشـتية وانتشرت في حكم القياصـرة» وبتفاصيل النواحي الدقيقة لطبيعة الاله.

ومن عـجب أن أصـبع الحبـر الأثرودي «الأترسكي» الأعـظم المخضـبـة بالدم أصبحت الداعيـة المتشددة التي تؤكد للناس تعاليم يسـوع الناصري!؟ وكذلك أيضًا أوقعها العقل الإغريقي الإسكندري في أحبولتـه بما جبل عليه من تعقيد ذهني حتى إذا وقعت الكنسـية في معمـعة هذا التطاحن الذي لا مفـر فيه بين هذه المتفـارقات المتناقـضة، اضطرت أن تصـبح اعتـقادية «دوجـماطيقـية» مـتصلة تأخـذ بالمذهب الاعتقادي الحتمى ذلك أنها حين يئـست من حلول أخري لخلافاتها الفكرية التجأت إلى الاستبداد التعسفي.

وقد كـان قسـاوستهـا وأساقـفتـها على التـدريج رجالاً مكيفـين وفق مذاهب واعتـقادات قيـمية وإجـراءات مقررة وثابتـة، حتى إذا ما آن أوان توليـهم منصب الكردلة أو البابوابة إذا بهـم في العادة كهول. قـد ألفوا من الكفاح السـياسي ذلك

الضرب الذي يقصد به غاية قريبة مباشرة، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس فقد نسوا ذلك الأمر، وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم هم متسلطة على شئون البشر، وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء من الشهوات المستقرة في قلوب البشر.

ونظرًا لأن كثيرًا ممن كانوا على الأرجح يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة، ولم يسمحوا بأية مناقشة فيه وكانوا لا يحتملون أية أسئلة ولا يتسامحون في أية مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين منها.

وعندما أقاموا الحروب الصليبية لأهداف سياسية دنيوية تتعلق بهم في الأساس كانوا يأذنون لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش، وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا مالك فرنسا مسالمة.

والقصص التي تروي عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا من أضراب القساوة والنضال البشع ما يتضائل إزاء بشاعته قصة أي استشهاد للمسيحيين على أيدي الوثنيين، وهي فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفًا لما هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها.

وكان هذا التعصب الأسود القاسي روحًا خبيثًا لا يجوز أن يخالف مشروع حكم الله في الأرض[1].

ثانيا: صور من اضطهاد الكنيسة للعلماء والمفكرين

وكان لابد أن يحدث الصدام بين رغبة متفجرة في المعرفة والبحث عن الحقيقة وبين مقررات دينية متناقضة ومجافية للعقل والمنطق وموقف كنائسي متصل

(١) راجع هـ. ج. ويلز. معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج١.

ومتعجـرف وفساد بابوي، بلغت رذائله حدًا من البشاعة يفـوق تصور البشر ودفع هؤلاء الباحثون عن الحقيقة الثمن.

لقد ألقي القبض على العالم الكبير روجـر بيكون، وقضى بقية عمره في السجن، ١٥ عامًا أما سيجر من باربانت. زعيم أولئك الملعونين. الذي تصدي للحكم الصادر ضده بشجـاعة، واستنجد بالبـابا فقد قضى الـ ١٥ سنة المتـبقية من عـمره في سجن الباب Orvie To ومات فـيه مخنوقـًا، لقد قاست الروح الـعلمية الحـقيقـية على يد السلطة المستـبدة المتـوحشة على سلطانهـا، من ضربة وحشـية بالغـة الشدة تلك هي الخلاصة المفزعة التي توصل إليها ليسنغ، من تأمله لتاريخ العلوم[١].

يقـول مارتن لوثر عن كـوبر نيكوس: «.. يريد ذلك الأحـمق أن يقلب علوم الفلك رأسًا على عقب، ولكن كما يقرر الكتـاب المقدس أن الشمس نفسها وليس الأرض هي التي أمرها يوشع بأن تقف...».

وأكد جون كلفن من كـبار قادة الإصلاح الديذني: «أن الأرض ثابتة مسـتشهدًا بالرموز ٩٣ (وكـذلك ثبتت المسكونة لا تـتزعزع) وسـأل باحتقـار (من ذلك الذي يجرؤ على وضع سلطة كوبر نيكوس فوق سلطات الروح القدس؟)».

وقررت الكنيسة الكاثوليكية: «أن الاقـتراح القائل بأن الشمس هي ـ المركز وأنها لا تدور حـول الأرض حمـاقة وسـخف وزيف في علم اللاهوت، وهرطقـة لأنه يتناقض على طول الخط مع مـا جاء في الكتـاب المقدس. وأمـا القول بأن الأرض تدور حول الـشمس وليـست في المركز فـسخيف وزائـف فلسفـيًا، ومن الناحـية اللاهوتية يعارض ـ على الأقل ـ العقيدة الحقيقية».

وفي عام ١٦١٦ وضـع كتاب كـوبر نيكوس في قائمـة الكتب المحرمـة وأدينت جميع الكتابات التي تؤيد حركة الأرض[٢].

---

(١) زيغريد هونكه. العقيدة والمعرفة.

(٢) راجع يحيى هاشم فرغل: حقيقة العلمانية.

ولم يقتصر الأمر على معارضة الكنيسة وقادة الإصلاح الديني والعامة بل وصل إلى أن حاول أحد مؤسسي المنهج التجريبي (كما يقال) وهو فرنسيس بيكون دحض فكرة دوران الأرض حول الشمس[1].

وحكم على برونو بالموت حرقًا لتأييده لأراء أمثال كوبر نيكوس أما جاليليو فقد قيد مـربوطًا بعامود وجثـا على الأرض راكعًا ونجا من الموت بإعـلانه الرجوع عن آرائه وبراءته بالتوبة منها.

وكان موقف الكنيـسة ضد الاعتقـاد بعمران اتلجانب المقـابل من الأرض، فقد ذهب القديس أوغـسطين إلى التوراة لا تشيـر إلى وجود مثل هذه السلالة الآدمـية واعتنقت الكنيسة والعالم المسيحي رأيه هذا دينًا ولجأت الكنيسة إلى محاكم التفتيش وآلات التعذيب وسخرتهـا فـي مطـاردة خصومهـا القائلـين بذلك الرأي.

وأوشكت الكنيـسة على إعـدام الطبيب بطرس البـانو لولا أن أنقذته المنـية من براثنها وأحرقـت العالم الفلكي ذائع الصيت تشكو الباتو لولا أن أنقـذته المنية من براثنها وأحرقت العـالم الفلكي ذائع الصيت تشكو داسكولوجيـا وحاربت كولمبس لتقضِ على مشـروع رحلته في كشف ما سمي بعد ذلك أمـريكا وأمر مجلس من العلماء برفض مطلبه وأتهـموه بنصوص من المزامير، وأقوال مسـتفاده من القديس بولس وأوغـسطين واسـتمـر الجدل ثـلاثة أعوام ثبت منه بـطلان المشروع الجـديد وأصرت الكنيسة على موقفهـا على الرغم من أن ماجلان قد أثبت برحلته المشهورة عـام ١٥١٩ وجـود الناس الذين يسكنون الجـانب الآخـر المواجـه من لمواطننا من الأرض فإن الكـنيسة لـبثت تقـاوم هذا الرأي قرنين من الزمـان حتى أكـد عصبة مبشرون ـ طافوا حول الأرض للتبشير ـ ذلك الرأي.

وفي فلورنسـا أعـدم الباباوات سـافـونا رولا وهو رجل دين يخلص للعـقيـدة الكاثوليكية ويوقر المركز البابوي ويحرص على حرفية النصوص لقيامه بدور سياسي للتحرر من الفساد.

---

(١) المرجع السابق.

موقف الكنيسة ومقررات الكتب المقدسة نفسها من العلم:

وجد علماء اللاهوت الأوربيون في فلسفة أفلوطين (٢٠٤ : ٢٧٠) إمكانية صنع نوع من التزاوج بين ميراثهم الديني الميراث الفلسفي اليوناني، والذي كان يشكل تهديدًا مباشرًا لمعتقداتهم. . . وكانت النظرية الأساسية لأفلاطون هي نظريته في الثالوث فهو يذهب إلى أن «الواحد موجود كامل والموجود الكامل دائمًا يلد موجودًا أدنى منه ولكنه الأعظم بعده، وهو العقل الكلي الذي هو كلمة الواحد وفعله وصورته ولما كان العقل الكلي موجودًا تامًا فهو يلد بالضرورة.

فلذلك فهو يلد النفس الكلية التي هي كلمة العقل الكلي وفعله كما هو كلمة الواحد وفعله. وهي أيضًا تلد موجودات أدنى منها. فهي التي خلقت جميع الحيوانات بأن نفخت فيها الحياة الحيوانات التي تغذيها الأرض والبحر والتي في الهواء والكواكب الإلهية في السماء، خلقت الشمس والسماء الواسعة ووضعت فيها النظام»[١].

ولقد استطاع أفلوطين بآرائه أن يضع حاجزًا لا يمكن اختراقه من المسيحية والطبيعة فهو يذهب إلى أنه: «لما كان الشر هو عدم الخير وكان الخير وجودًا ولما كانت المادة لا وجودًا أي غير معينة أو مصورة في ذاتها، وكانت الصورة خيرًا كانت المادة أو عدم الصورة هي الشر بالذات[٢].

ويذهب أيضًا إلى أن «الروح ذاتها تصبح شريرة عندما تلامس الحواس» وقد كان أمبروزو مدافعًا غير هياب عن سلطة الكنيسة حتى استطاع أن يضع أسس العلاقة بين الكنيسة والدولة كما ظلت سائدة طوال القرون الوسطي، واستطاع أن يجعل من الكنيسة «مؤسسة عالمية تتخطي حدود الدول» أما القديس أوغسطين والذي كان «يرجع إليه أساسا الإطار اللاهوتي للكاثوليكية حتى عصر الإصلاح الديني، فقد

---

(١) يوسف كرم. تاريخ الفلسفة اليونانية.

(٢) المرجع السابق.

كان هـدفه الأكـبر في الأسـاس هو التوفـيق بين تعاليم الكتـاب المقدس والـتراث الفلسفي للمدرسة الأفلاطونية القديمة والجديدة.

وقد اسـتطاع توا الأكويني منذ القـرن الثالث عشـر أن يعقـد زواجًا نفعـيًا بين المذهب الكاثوليكي والفلسـفة الأرسطية التي اسـتبدل بها الأفـلاطونية (بالرغم من كـون الآ]يرة أكـثـر ملاءمـة للفكر الـكنائسي). ومن خـلال نظرة الإكـويني إلى الطبيعة.. وهو الذي كـان يصف الرغبين في معرفة الطبيعة وبالراغـبين في معرفة الأشياء التافهة» ويحذرهم من ذلك الضمير السيء الذي يشدهم إلى ذلك ـ استطاع أن يصنع عائقًا صلبًا جديدًا في وجه ميل وعلم طبيعي أصيل.

وهذا هو «أوزيب» عـالم اللاهـوت مطران «القـيـصـرية» يتـوجـه إلى علمـاء الإسكندرية قائلاً: نحن لا نولي نشاطاتكم أدني اهتـمام، بل ندري تلك النشاطات التي لا طائل منها ونتوجه بعقولنا صوب اهتمامات أسمي وأرفع» وبعد عشرة قرون يؤكد القديس توما الأكويني هذه النظرة بقوله: «نحن نفضل الحد الأدني من المعرفة بالأمور الدنيوية الفلسفية.

وفي الحقيقة فإن آباء الكنيسة معذورون في موقفهم هذا من التفكير والبحث في الطبـيـعة لأن تخلـيهم عن هذا المـوقف يعني في الواقع تخليـهم عن الدفـاع عن عقائدهم الدينية هذا فضلاً عن تخليـهم عن سطوتهم ونفوذهم إذا لم يفترض فيهم حسن النية. لأن المسألة في الحقيقـة ـ وهذا ما يحاول الكثير منالكتاب الغربيين بل وبعض العرب أيضًا فرض حصـار من التعمية والتعتيم عليـه ـ ليست مسألة موقف الفكر الكنائسي المعادي للطبيعة والمنحاز للفكر الأغريقي والذي صنعت منه الكنيسة سياجها الفلسفي، ولا حتى مسألة تـأويلات وشروح جامدة للكتاب المقدس فرضها هؤلاء الأباء على الناس، ولكن الأهم من كل ذلك هو عداء تعليم الكتاب المقدس نفسه كـما هو موجود عندهم للبحث في الـطبيعة وتناقض الكثيـر من مقولاته مع بديهات العـقل وحقائق العلم، وهـذا ما جعل إباء الكنيـسة يعون جـيدًا أنهم لن

---

(١) راجع عبدالرحمن بدوى مرجع سابق (ص٥ ـ ١٣).

يستطيعوا إذ ترك باب حرية التفكير والبحث في الطبيعة مفتوحًا - أن يواجهوا تيار الحقائق العاصف، الذي يمكنه اقتلاع عقائدهم وسلطتهم والإطاحة بها مهما بلغت بهم درجة التأويل لمقرات الكتاب المقدس لتتفق مع الحقائق الجديدة.

ويقول موريس بوكاي[1] وهو عالم مسيحي أسلم بعد أن قام بدراسة موضوعية عن الكتب الدينية الثلاثة في ضوء المعارف الحديثة - بعد أن قد فحص التناقضات التاريخية والموضوعية بين مقولات الكتاب المقدس: «إن للمحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل والتي استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى اكتساب مفهوم أدب «مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار، وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل» كما تقول ألفاظ الحكم الذي أصدره المعلقون على الترجمة المسكونة للكتاب المقدس».

ويقول[2] في موضع آخر: «من زاوية المنطق يمكن أن نتبين عددًا كبيرًا من المتناقضات والأمور غير المعقولة في التوراة» ويقول أيضًا: «لقد قمت بفحص العهد القديم والأناجيل، أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول أي سفر التكوين فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا، وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولي منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ونعني بها شجرة أنساب المسيح، وذلك لأن نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي نص إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض.

ومع ذلك فقد كان القديس أوغسطين يخطب في حسم قائلاً: «أن مؤلفات الكتب المقدسة، هذه التي تعرف بالقانونية هي فقط التي تعلمت أن أعطيها انتباها واحترامًا كاعتقادي الحازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ فعندما التقي في

---

(١) الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث.

(٢) المرجع السابق.

هذه الكتب بدعوي تبدو مناقضة للحقيقة، فإني عندئذ لا أشك في أن نص (نسختي) لا يحتوي على خطأ وأن المترجم لم يتروجم النص الأصلي بشكل صحيح أو أن مقدرتي على الفهم تتسم بالضعف» هذا الموقف الحاسم من القديس أوغسطين كان يعتمد في الأساس على موهبة علماء اللاهوت في تقديم التأويلات والشروح التبريرية لستر نقاط الضعف فإن «المتناقضات والأمور الجيدة عن التصدي تظل باقية بلا حل في نظر كل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه الموضوعي. وإننا لنأسف حقًا لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق»[1].

أما عن موقف المسيحية من البحث والمعرفة فتقول عنه زيغريد هونكه[2] لم يكن لدى المسيحية، كهدي سماوي أسئلة نوجهها إلى العالم، ولم تسمح للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة لها، أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هي السبب في إنزال الخطيئة إلى العالمت أو لم يفص الله في كتبهم المقدسة، حكمة العالم بأنها غباء؟ ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة... وإلى جانب الطرق الروحية، الوحيدة الموصلة للروح. إلى الله، اعتبر كل طريق للبحث عنها في أي مكان آار عدا الوحي خاطئًا مارقًا، ولقد جرب ذلك كل من فلهلم - كوس وجلبرت دي لابو De le paree؛ وكثيرون غيرهم على أبدانهم أن تكون محبًا للاطلاع، وأن تبحث بعد ما بشر بالإنجيل أمرين جعلهما يتوتوليان وأوغسطين ورئيس الأساقفة تمبير Tampier إثمًا عظيمًا وخطيرًا».

---

(١) المرجع السابق.

(٢) العقيدة والمعرفة.

موقف الإسلام من العلم والعقل

نستطيع القول بأن القرآن قد كشف عن وجود العلاقات المنطقية التي تحكم الكون، وأمر الناس بالبحث عنها وإدراك حقيقتها وجعل ذلك من مراتب العبادة ﴿سبحانه وتعالي.

الإسلام والعقل

العقلانية كطريقة للتفكير بوجه عام تعني الحركة الاستدلالية التي ينتقل بها الذهن بفاعلية من مقدمة ما إلى نتيجة أو من حقيقة ما إلى حقيقة تتولد عنها أو ترتبط بها ارتباطًا مطردًا.

وهي بذلك ترتبط في الواقع الثقافي بعدة أمور أخري، منها الموقف من حرية العقل والموقف من حقائق العلم والرؤية التحليلية للواقع الذي لا تتعامل معه من خلال فرضيات حتمية مسبقة.

ولقد كان موقف الإسلام من العقل والعقلانية على النقيض تمامًا من موقف المسيحية الثالوثية بداية من العقيدة الأساسية التي يقوم عليها الدين الإسلامي وهي عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فهي عقيدة واضحة أشد ما يكون الوضوح، بسيطة أشد ما تكون البساطة، محددة أشد ما يكون التحديد فهي لا تكاد تدور إلا على محور واحد وهو الإيمان بالله وحده ونفي أي شركاء له ونفي أي وسائط بينه وبين البشر وأنه وحده الذي تحق له عبودية الإنسان بما تشتمل عليه من حب وخضوع وذلك من خلال طاعة تعاليمه وتحكيم أوامره وهذا لا يكون إلا من خلال تطبيق رسالة رسوله إلى البشر محمد .

والذي يقتضيه الإيمان بتلك العقيدة هو تحرير الإنسان من أوهام الخرافات والكهنوت والأوثان ومن أغلال الملوك والطواغيت والأعراف والتقاليد الأرضية.

والقرآن الكريم (الأساس المرجعي الأعظم لكل المسلمين) يطالب الإنسان بالاحتكام إلى العقل حتي إن «مادة (عقل) ذكرت في القرآن أكثر من خمسين مرة،

وتكرر السؤال الاستنكاري (أفلا تعقلون؟) ثلاث عشر مرة وكأنه لازمة. ولو تتبعنا الكلمات الأخري التي تدخل في نفس الموضوع مثل: نظر وفكر وفقه وعلم وبرهان ولب، ونحو ذلك لوجدنا من الآيات الشيء الكثير جدًا»[١].

بل إننا نستطيع القول بأن القرآن قد كشف عن وجود العلاقات المنطقية التي تحكم الكون، وأمر الناس بالبحث عنها وإدراك حقيقتها وجعل ذلك من مراتب العبادة لله سبحانه وتعالي. وهذا ما يجعل كاتبًا ماركسيًا مثل مكسيم رودنسون يتحدث عن العقلانية في القرآن فيقول [٢]: «وفي مقابلة العهدين القديم والجديد فإن العقلانية القرآنية تبدو صلبة كالصخر وكما يقول العقاد عن الإسلام في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) إنه «دين يفرض المنهج السليم على كل مستمع واعٍ للخطاب قابل للتعليم».

أما موقف الإسلام من العلم فإنه يتلخص في تقريره أن الطريق إلى معرفة أسرار الوجود من طريق الشهادة الكونية على أنه سبحانه وتعالي هو الحق. يقول الله سبحانه وتعالي في قرانه الكريم: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق﴾**.

ولذلك فإن جارودي يذهب إلى أن «مبدأ التوحيد ـ وهو حجر الأساس في تجربة الإسلام لمعرفة الله ـ يلغي كل ما يفصل بين العلم والإيمان. وبما أن كل شيء في الطبيعية هو دليل على الوجود الإلهي، تصبح معرفة الطبيعة ـ مثلها في ذلك مثل العمل ـ شكلاً من أشكال الصلاة وسبيلاً للتقرب من الله[١].

والقرآن الذي كانت أول كلمة أنرلت فيه «أقرأ» وثاني سورة في النزول هي القلم، يصف الغافلين عن النظر والتفكر في هذا الكون بأنهم **﴿كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾**.

فالكون هو كتاب الله المفتوح، كما أن القرآن هو كتاب الله الموحي. والقرآن كثيرًا ما يضرب الأمثلة في تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسي فهو حين يرد على افتراءات المشركين يقول عنهم ﴿**ما أشهدتم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم**﴾. فهو قد ينفي دعواهم لانتفاء المشاهدة فمن أين إذن قد أتوا بتلك الدعوي؟ كما أن الله يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾.

وهذا الموقف من العقلانية في التفكير هو الموقف الذي حرص على تأكيده أئمة ومفكرو الإسلام على امتداد التاريخ.

يقول الإمام ابن حزم عن منهجه في كتابه التاريخي (الفصل في الملل والأهواء والنِّحل)[1]: «إن إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس من قرب أو بعد على حسب قيام البراهين التي لا تخون أصلاً مخرِّجة إلى ما أخرجت له، وألا يصح إلا ما صححت البراهين المذكورة إذ ليس الحق إلا ذلك»[2].

ويقول في موضع آخر:

«إن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئًا غير إصلاح النفس وهذا نفسه لا غيره الغرض في الشريعة. هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالشريعة. اللهم إلا لمن انتمي إلى الفلسفة، بزعمه وهو ينكر الشريعة بجهله على الحقيقة بمعاني الفلسفة، وبعد عن الوقوف على غرضها ومعناها»[3].

أما الإمام الغزالي فيقول:

«والنتائج اليقينية التي نستدلها من مقدمات يقينية إذا قيل لك خلافها حكاية عن أعظم خلق الله مرتبة وأجلهم في النظر والعقليات درجة، بل لو نقل عن نبي صادق نقيضه فينبغي أن يقطع بكذب الناقل أو بتأويل المسموع عنه، ولا يخطر ببالك إمكان الصدق. فإن لم يقبل التأويل فشُكَّ في نبوة من حكي عنه بخلاف ما عقلته إن كان ما عقلته يقينًا».

هل قرأت ـ معي ـ العبارة الأخيرة جيدًا: «فشك في نبوة من حكي عنه بخلاف ما عقلته كان ما عقلته يقينًا».

فيا ترى من أين أتي الإمام الغزالي بتلك الجرأة في الشك في نبوة نبي صادق حكي عنه بخلاف ما يعقل يقينًا؟!.. لا شك أن الذي يتدبر القرآن جيدًا يكتسب بشكل طبيعي تلك الجرأة، لأن القرآن في خطابه إلى الناس يستدل على الحقائق الإيمانية بمبادئ العقل وحقائق الحس وخبرات التجربة.. أي أنه يؤسس إدراك الحقائق على اليقينات العقلية والحسية.

ويقول الإمام ابن تيمية[1]: «إذا قيل تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا فالواجب أن يقال: لا يخلو، إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين وإما يكونا أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا.

أما القطعيان فلا يجوز تعارضهما: سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا، وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل العقلي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة. وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين ـ وهو محال ـ بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية فلابد أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، وأن لا يكون مدلولاهما متناقضين. فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين.

وإن كان أحد الدليلين قطعيًا دون الآخر، فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء

كان هو السمعي أو العقلي، فإنه الظن الذي لا يدفع اليقين.

وأما إن كانا جميعًا ظنيين: فإنه يصــار إلى طلب ترجيح أحدهما. فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًا أو عقليًا».

وفي إيجاز وحسم يقول الأستاذ الإمام حسن البنا[1]: «إن الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر في الكون ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح النافع من كل شيء و«الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق الناس بها».

وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العـقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لا يختلفان في القطعي. فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة. ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي».

وفي تحديد شديد يقول الإمام المودودي[2].

«وجملة القــول إن هذا الدين لا يمكن لأحد أن يتبــعه ويبقي ثابتًا مــستقيــمًا إلا بقدر ما يكون له من العلم والبصيــرة والنظر والفكر، لأنه بقدر ما ينال الكمال في هذه الجوانب ينال كمال درجاته عند الله».

ويقول في موضع آخر:

«ولكن ليس مدار الانتفاع من هذا الكتاب - يقصد القرآن الكريم - والبقاء على الصراط المستقيم واجتناب الضلالات في العقيدة والعمل إلا على نفس ذلك الشيء الذي أقيم عليه بناء الدين منذ أول يومه أي العلم والعقل»[1].

. . .

أثر العقلانية الإسلامية
في نهضة أوروبا

البدايات الأولي لثورة العقل الغربي على المسيحية الثالوثية والسلطات البابوية

(ملك وعالم وفيلسوف)

«لست أسعي للفهم لكي أعتقد؛

بل إني أعتقد كي أفهم»

القديس أوغسطين

مدخل:

يمكن القول بكل ثقة: إن تاريخ العقل الغربي هو تاريخ الثورة على العقيدة الغامضة للمسيحية الثالوثية واستبداد وفساد الكنيسة البابوية وإن ذلك تم في الأساس بتأثير الفكر الإسلامي بوجه خاص.

وقد بدأت الثورة العقلية في الغرب إصلاحية في الأساس تستهدف التعديل وكشف الغموض وتحكيم العقل واستبقاء أفضل ما في الدين من فضيلة وعقيدة يقبلها العقل والمنطق السليم. فإذا ما جوبهت بما لا نظير له في التاريخ من القسوة والاضطهاد تمردت على الدين ذاته ـ الدين المسيحي أولاً ثم كل الأديان بعد ذلك ـ وهذه إحدي جنايات المسيحية الثالوثية والسلطات البابوية على الإسلام والتي نواجه نتائجها في الحرب العلمانية في هذا العصر بتلك العقلية الثأرية من الدين بوجه عام. فإذا ما بلغ الفكر العقلي العلماني أوج تمرده واستنفد طاقاته الإبداعية تمرد على العقل ذاته وهذا ما يحدث الآن في بعض مدارس الفكر الغربي.

وسوف نشير هنا إلى التمردات العقلانية الأولي التي سبقت عصر النهضة وكان التأثير الإسلامي عليها أكبر من القدرة على إغفاله.

أولاً : الفيلسوف إبلار

يصف ول ديورانت الفيلسوف الفرنسي إبلار (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) بأنه «شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر»[١].

وقد رأي هذا القس الفيلسوف في الكتاب المقدس: «أن لغته قد كتبت لغير المتعلمين وأنها يجب تفسيرها بالرجوع إلى العقل والمنطق. غير أن النص المقدس قد فسد في بعض الأحيان لما أضيف إليه زورًا أو لعدم العناية بالنسخ، ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضًا وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل»[٢].

وكتب في كتابه «وحدة الإله والتثليث» يقول: «إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها، وإنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولاً وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعي لتعليمهم أن يفهموه»[٣]. وأشار في هذا الكتاب نفسه إلى أن وحدة الله هي النقطة الوحيدة التي يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة. ومن ناحية أخري فقد هاجم عقيدة الخطيئة ـ خطأ كل البشر المجسد في خطيئة آدم والتي لا غفران لها إلا من خلال صلب المسيح ـ وذلك بطريق غير مباشر وذلك في ذهابه إلى أن الخطيئة لا تستتبع سوي نية العامل بها كما وجه طعناته «لفساد أخلاق القساوسة والرهبان وبيع صكوك الغفران واختراع المعجزات الزائفة»[٤].

وعلى الرغم من أن إبلار كانت تجتمع له التلاميذ من كل أنحاء أوروبا (الشيء

---

(١) «قصة الحضارة» : (مج٩ جـ١ ص٦٠).

(٢) نقلاً عن ول ديورانت ـ «قصة الحضارة» : مج٩ ج١ ص٧٥.

(٣) المرجع السابق (ص٧٦).

(٤) المرجع السابق (ص ٨٨).

الذي يلقي الضوء على مدي ما كانت تلقاه دعوة التوحيد من قبول) فإنه قبل تحت ضغط انتقادات القساوسة حوله ترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس في بريطانيا (١١٢٥) «وكان في هذا الانتقال ترقية لإبلار وسجن له في وسط سكان من البرابرة الذين لا يفهمون وبين رهبان أدنياء لا يُروَّضون، يعيشون جهرة مع حظياتهم»(١).

ولو أنه لك لم له أمثلة من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذي رجاء ألا يطول أجله. لكنه كان له أتباع متحمسون وكان ثمة معلمون غيره مثل جلبرت ده لا برية وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل. فإذا ظل هذا التيار يجري في مجراه فإلى متي تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان اللتين يقوم عليهما نظام أوروبا الأخلاقي والاجتماعي.

وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات هي التي جعلت القديس برنار «أهم رجال الدين في عصره» يقف في وجهه ومع ذلك فإنه عندما دعي هذا القديس لحضور مجلس الكنيسة المنعقد لمحاكمة إبلار رفض وقال: «إنه سيكون في حلبة الجدل طفلاً أمام إبلار الذي تدرب على المنطق أربعين عامًا»(٢) وما نراه أن برنار لو كان واثقًا من توافق عقيدته مع العقل ما تهرب من حلبة الجدل لأن الحق أجدر بالانتصار من قوة الجدل، ولكنه كان يعلم جيدًا ما قاله القديس أوغسطين من أن عقيدته قائمة على الإيمان لا على العقل.

وأخيرًا تم الحكم على إبلار بحجزه في أحد الأديرة وتجريده من كل المناصب التي ضحي من أجلها بأعز ما يمكن أن يرزق به إنسان من سعادة الدنيا وهو حرمانه من حبيبته هلوز والتي نشأت العلاقة بينهما حين كان أستاذًا شهيرًا في الثامنة والثلاثين من عمره وكانت هي تلميذة له في السادسة عشرة من عمرها وقد تحايل أن يحتفظ بها دون زواج وارتضت هي ذلك حتي لا يتسبب هذا الزواج في

---

(١) المرجع السابق: (ص٧٩).

(٢) المرجع السابق: (ص٨٧).

الحيلولة دون رسمه قسيسًا ومن ثم اعتلائه لأرفع المناصب، الأمر الذي تسبب في انتقام عائلتها منه أبشع انتقام وحرمانه منها إلى الأبد، وهكذا تسببت تلك المراسم الرهبانية المنافية للطبائع الإنسانية في حدوث تلك المأساة الشهيرة التي تعد من أبشع المآسي العاطفية في التاريخ.

والسؤال المطروح الآن هو: من أين استمد إبلار كل هذا التمرد العقلاني ضد المسيحية الثالوثية والكنيسة الغربية»؟.

إننا لا نجيب على ذلك بأي نوع من الاستنباط أو التخمين ولكننا نقدم الدلائل التاريخية على أنه استمد ذلك من فكر المسلمين، حيث يقول أليكس جورافسكي في الإجابة عن ذلك: «بالنسبة لإبلار فإن كلمة عربي من حيث المعني الجوهري معادلة تمامًا لكمة فيلسوف وقد تخيل - بناء على هذه الفرضية - أن صراعات الفلاسفة مع المؤسسة الدينية للكنيسة الأوروبية يمكن تأصيلها وتنظيمها وبالتالي توجيهها انطلاقًا من أي بلد إسلامي، وأنه شخصيًا يمكن أن يعمل في هذه البلد الإسلامي المتفلسف ولو بقوت يومه فقط، وحتي وإن كان وسط أعداء المسيحيين، ولكن بشرط أن يتمتع عندهم بوضع رسمي».[(١)].

فهذا الذى يذكره جورافسكي على لسان إبلار نفسه لدليل قاطع على أن أول وأعظم الفلاسفة المتمردين على الكنيسة والرافعين للواء العقل والملهمين لكل التيارات العقلانية في أوروبا بعد ذلك كان متأثرًا في ذلك بالفكر الإسلامي.

---

(١) «الإسلام والمسيحية» «عالم المعرفة»: (٦٢، ٦٣).

ثانيًا: أعجوبة العالم: الإمبراطور فريدريك الثاني المتمرد على الكنيسة هل كان مسلمًا؟

كـان الإمبـراطور فريدريك الثـاني في الرابعـة من عمـره حين توج ملكًا على صقلية عام ١١٩٨ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام تتويجه وأوصت قبل موتها أن يكون البابا نفسه وصيًا على ابنها وعرضت عليه في نظير ذلك راتبًا مجـزيًا وأن ينوب عنه في الحكم وأن تعاد له السيادة على صقليـة وقد فرح البابا بهـذا العرض رغبة مـنه في إنهاء الاتحاد بين صقليـة وألمانيا الذي أقامه والد فريدريك ومن ثم فقد أيد البابا إنوسنت آتو الرابع في تولي عرش ألمانيا.

وشب فريدريك محوطًا بالإهمال والفقر أحـيانًا حتي كان ذوو القلوب الرحيمة يأتون بالطعام لهذا الغلام الملكي الـبائس. ومع ذلك فقد أتقن في تلك الأيام ومن خلال تجـوله في الشوارع اللغـتين العربيـة واليونانية ومن ثم المـعارف الإسلامـية واليونانية القـديمة. ؟؟؟؟؟ صقلية هذه التي نشأ فيهـا فريدريك كانت تحت الحكم الإسلامي إلى عهد قريب. ولهذا فـقد اختلط فريدريك في أيام شبابه بأجناس من شعوب مـختلفة. كل ذلك أثر في تكوينه وصنع منه ذلك الكيـان الملكي المختلف عما عهده الأوروبيون من ملوك.

ثم واتاه الحظ بأن نقض آتو الرابع العهد الذي قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا في الولايات البـابوية فحرمـه البابا من الكنيـسة وأمر بارونات الإمـبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشـها فريدريك الشاب الذي تحت وصيته. ولكن البابا مع ذلك لم يتحول عن غـرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليـها ولهذا طلب من فريدريك نظيـر تأييده إياه أن تظل صـقلية إقطاعيـة للبابوات تؤدي لهم الجزية، وأن تظل منفصلة عن الإمبراطورية، وأن يقـيم في ألمانيا بوصفه إمبراطورًا عليها، وتعهد فريدريك الداهية فضلاً عن هذا كله بأن يقوم بحملة صليبية.

وانتصر فريدريك بمساندة البابا على آتوا ثم هنري أخيه ولكنه مع ذلك تعلل بعدم قيامه بالحملة الصليبية نتيجة اضطرابات في إمبراطوريته ومات البابا هونوريوس عام ١٢٢٧ الذي خلف إنوسنت دون أن يبر فريدريك بقسمه واعتلي عرش البابوية جريجوري التاسع الرجل الصارم القوي الشكيمة وعندما تعلل فريدريك بالمرض لعدم قيامه بالحملة نفد صبر البابا جريجوري ولم يستمع إلى أقوال رسل فريدريك وأعلن في العالم حرمان الإمبراطور. فاضطر فريدريك إلى إعداد حملة إلى فلسطين عام ١٢٢٨ فكانت المفاجأة لدي العالم أجمع أن السلطان الكامل سلمه مفاتيح القدس بلا حرب، وأن الذين رفضوا استقباله هم الصليبيون أنفسهم بل وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فريدريك في مدينة القدس قد دنسها وألقي العامة المسيحيون عليه الأقذار عند رحيله من عكا في رحلة عودته إلى بلاده. ثم استرد فريدريك الولايات التي استولي عليها البابا بعد رحيله ووقف عند حدود الولايات البابوية فاضطر البابا إلى الصلح في معاهدة سان جرمانو سنة ١٢٣٠.

وفي عام ١٢٣٤ خرج هنري على أبيه فريدريك وانضم إليه البابا ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة اتهم فيه فريدريك بالكفر والتجديف والاستبداد والرغبة في القضاء على سلطة الكنيسة ثم أصدر قراراً ضده بالحرمان عام ١٢٣٩. فضرب فريدريك بنفنتو مركز القوات البابوية واعترض أسطوله قافلة من جنوي تنقل إلى روما طائفة من الكرادلة والمطارنة ورؤساء الأديره والقساوسة الفرنسيين والإسبان والإيطاليين وأسر عدداً منهم ليساوم عليهم مما أثار الأوروبيين المتعاطفين معه عليه، وكان من أهم أسباب هذا التعاطف هو نقمتهم على الكنيسة وأنهم كانوا يرون في فريدريك قيصراً جديداً. وكثر وقتئذ عدد الذين يعتقدون أن فريدريك هو المسيح الدجال. ولكن جريجوري مات في هذه الأثناء وكان البابا إنوسنت الرابع كبر؟؟؟ من سلفه فقد وافق على شروط للصلح عام ١٢٤٤ ثم قرر حرمانه مرة أخري من الكنيسة عام ١٢٤٥ عندما رأي إصراره على فتح الولايات البابوية بل وأعلن ضده

حربًا صليبيــة ومنح الذين حملوا الصليب للقتال في فلسطين إذا اشتــركوا في قتال الإمبــراطور الكافر جميـع المزايا التي تمنح للصليبين، فــرد فرديريك على هذا بأن أصدر منشــورًا للإصلاح يعلن فـيه أن رجــال الدين «عبيــد للدنيا منهــمكون في ملذاتهم لم تبق ثروتهم المتزايدة على شيء من تقواهم»[1] ثم صادر ما للكنيسة من أملاك. ولكن وزيره الأول وموضع ثقــته غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضــده فأمر بالقبض عليه وفقأ عينيــه. وحاول طبيب فريدريك أن يقتله بالسم عام ١٢٤٩ لكن الإمبراطور مات بالفعل في عام ١٢٥٠.

هل كان الإمبراطور فريدريك الثاني مسلمًا؟

يقول ول ديورانت عن الإمبراطور فريدريــك الثاني: «ملاك القول أن فريدريك كان رجل النهضة قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام»[2].

الخلاصة التي نراها في هذا الرجل أنه كان واحــدًا من أهم الذين أشاعوا الثورة العقلية ضد الكنيسة تحت تأثير الفكر الإسلامي على وجه الخصوص.

ولا يختلف أحد من المؤرخين على هذا القدر من الموضوع، ولكن التاريخ يذكر من الروايات ما هو أبعد من هذا وهو أن الإمبراطور فــريدريك كان مسلمًا بالفعل وهو الأمر الذي يســتجيب له العــقل عند التحقيق منــه إلى حد كبيــر ونستطيع أن نتبين الأمر في التالي:

يروي ول ديورانت أن مــاثيو باريس كــان يقول: «يقــول أعداء الإمبــراطور إنه يوافق على شريعة محمد ويؤمن بها أكــثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسي... وإن صداقته للمسلمين أقوي من صداقته للمسيحيين»[3].

ومن الشواهد التي تدعم هذه الرواية:

---

(١) نقلاً عن ول ديورانت، «قصة الحضارة» : (مج ٨ حـ١ ص ٢٩٤).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٩٦).

(٣) المرجع السابق: (ص ٢٨٨، ٢٨٩).

* أن فريدريك قد تـربي على التراث العلمي الذي خلفه المسلمون فـي صقلية «وقد قرأ بنفسه كثيرًا من روائع الكتب العـربية الخالدة واستدعي إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين[١].

* أن الرجل لم يتـهم بالكفر من كل باباوات الكنـيسة المتـتابعين فـقط والذين أصدروا ضده ثلاثة قـرارات حرمان وقاد البـابا إنوسنت الرابع حربًا صليبـية ضده منح المشاركين فـيها كل ؟؟؟؟؟؟؟؟ المسلمين في فلسطـين ولكن اتهم بذلك أيضًا من قبل زوجته إزبلا وابنه ووزيره وطبيبه أي من أقرب المقربين إليه.

* أن السلطان الكامل سلمه مفاتيح القدس بكل ود وترحاب وأن الذين رفضوا دخوله إليها هم الفرنجة أنفسـهم وظل يراسل الكامل بالعربية التي يتقنها «ويقول له في رسائله: إنه أعز أصدقائه بعد أولاده»[٢].

والأهم من كل ما سبق أن غالب حرسه وخير من يعتمد عليهم من الجنود كانوا من المسلمين وفي وسعنا كما يقول ول ديورانت : «أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده»[٣].

وأيًا ما كان الأمـر فإن فريدريك تحت تأثير الفكر الإسـلامي كان أول من كتب وثائق واضحة صريحة «شهر فيهـا بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم وعزي كل المفاسـد إلى استكبارهم وثرائهم واقـترح على زملائه من الأمراء مـصادرة كل أملاك الكنيـسة مصادرة عـامة»[٤] فكان واحدًا من أهم رواد الـثورة العقليـة ضد الكنيسة وكما يقول هـ ج ويلز: «فقـد كان الأمراء والمتعلمون في أرجاء أوربا كافة يقرأون رسائله ويتباحثون فيها»[٥].

---

(١) المرجع السابق: (ص ٢٨٧).

(٢) نفس المرجع.

(٣) المرجع السابق: (ص ٢٨٢).

(٤) هـ . ج. ويلز «معالم التاريخ الإنسانية»: (مج٢ ج١ ص ٨٩٩).

(٥) المرجع السابق: (ص ٩٠٠).

ثالثًا: العالم روجر بيكون:

ولد روجر بيكون أشهر علماء أوروبا فـي العصور الوسطي بإنجلترا عام ١٢١٤ ودرس في أكسفورد، وسافر بحثًـا عن العلم إلى فرنسا وإيطاليا واليونان التي تعلم فيها العلوم الإسلامية «وكان يعتـرف بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحي كله»[١].

وكان روجر بيكون هذا ـ والذي سبق سميـه (فرنسيس بيكون) بالاهتمام بالمنهج التجريبي بثـلاثمائه عام ـ ثائرًا على الكنيسة وأرسطو مـعًا إلا أنه اتخذ من الأولي موقف المدارة بداية لكي يمرر موقفه من الثاني ثم وجد في النهاية أنه ما من بد من الثورة عليهما معًا.

فعندما اعـتلي كليمنت الرابع عرش البابوية وجاء معـه ببعض الروح الحرة ظن بيكون أن الفرصة قد واتته للتعـبير عن بعض أفكاره المتمردة ولو في المجال العلمي على الأقل ومن ثم أرسل أفكاره ملخـصة إلى البـابا معلنًا حـرصه الشـديد على التمسك بالدين القويم والنزول بالعلم والفلسفة منزل الخدم لعلوم الدين.

ولم يكن بيكون يكن المحبة لأرسطو الذي كـان مسيطرًا على الفكر الكنسي في تلك المرحلة وإنما يكن الحب لابن زخـر والرازي وابن الهـيثم وللعلمـاء والمفكرين المسلمين بوجه عام وكان يصرخ بقوة قائلاً عن أرسطو: «ما الذي يعجبكم في هذا الرجل؟ وكان لا يفتأ يردد دائمًا: العلم ليس موجودًا إلا لدي العرب»[٢].

ورأي بيكون أن أربعة أسباب هي التي تـوقع الإنسان في الخطأ وهي: «الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدي بهـا، والعادة التي استقرت منذ زمن بعيد وإحساس الجماهير الجاهلة، وتغشية الجهل بستار من التظاهر بالحكمة» ويحرص أن

---

(١) ول ديورانت ، «قصة الحضارة» : (مج٩ ج١ ص٢٠٦).

(٢) راجع محمد شديد «قيمة الحياة فى الإسلام»،وكذلك زيغريد هونكة ـ «العقيدة والمعرفة».

يضيف إلى هذا أنه «لا يشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التي وهبت إلى الكنيسة، وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفي لأن تكون قضة ما في رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجدت في أرسطو، ويجهر بأنه لو أوتي السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف. لأنها في رأية منبع الأخطاء ومصدر الجهل.

ويبدو أن روجر بيكون يأس من استجابة البابوات لأفكاره فرأي أنه لا مفر من التنفيس عن مخبوء أفكاره الأخري فألهب بسوط آرائه جميع نواحي الحياة في القرن الثالث عشر.

وكتب في عام ١٢٧١ فقرة تدلل على أن فساد عصرنا ربما يتضاءل بجانب الفساد في ذاك العصر حيث يقول: «يرتكب في هذا العصر من الذنوب أكثر مما يرتكب في أي عصر قبله فالكرسي البابوي يمزقه خداع الظالمين وغدرهم... ولقد فشا الكبرياء بين الناس، وغلت مراجل الطمع في الصدور وأنشب الحسد أنيابه في جميع النفوس، والبلاط البابوي كله يسربله الفجور والعار، والنهم هو سيد الجميع... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسي أن تفعل سائر الأعضاء؟ فلتنظر إلى كبار رجال الدين الذين يجرون وراء المال ويهملون العناية بالأرواح ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولي الأرحام والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شيء بنصائحهم... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين، لست مستثنيًا أحدًا مما أشدهده بينهم. انظروا في آية هاوية تردوا وهووا من شامخ مجدهم فرادي وجماعات، وها هم أولاد الرهبان (الإخوان) الجدد قد فسدوا فسادًا مروعًا وحادوا عن تقواهم الأولي، وأن رجال الدين عن بكرة أبيهم لا هَمَّ لهم إلا التكبر والفجور والبخل»[1].

وقد وجد بعض الباحثين المعاصرين في أفكار روجر بيكون الثورية لا سيما في

(١) ول ديورانت ـ «قصة الحضارة»: (مج ٩ ج٢ ص ٢١٨).

نظريته حول السلطة البابوية، وفي مجموعة من أطروحاته السياسية تجديدًا لأفكار ابن سينا والفارابي في ميدان السياسة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم»[1].

وما كان هذا العصر يسمح بهذا الإسراف في نقد الكنيسة والتفكير العقلي الحر خصوصًا ذلك الذي يشتهر عنه تأثره بالفكر الإسلامي مثل بيكون ومن ثم حكم عليه بالسجن عام ١٢٧٧م.

يقول أليكس جورافسكي عن موقف المسيحية من الإسلام في ذلك العصر: «موقف المسيحية من الإسلام حددته محطتان رئيسيتان: أولاهما ضرورة التعلم منه كونه الأقوى والأعلم من جهة. وثانيتهما التصارع معه كعقيدة غريبة ومعادية من جهة أخري»[2].

ولينظر المرء على الأسس السابقة إذا كان هذا هو ما تعرض له الثوار على الكنيسة في ذلك العهد فماذا يا تري كان من الممكن أن يتعرض له من يتمادي في غيه ويعلن إيمانه بالإسلام جهرة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تجيب لنا في نفس الوقت على تساؤلات كثيرة تتعلق بحقيقة استجابة الغربيين للإسلام في ذاك الوقت.

---

(١) أليكس جورافسكي ـ «الإسلام والمسيحية»: (ص٥٥).

(٢) المرجع السابق : (ص٦٧).

الإكراه على الاعتقاد
بين المسيحية والإسلام

محاكم التفتيش

خير ممثل لحرية الاعتقاد في المسيحية الكاثوليكية

يقول ول ديورانت -بعد أن يعدد مباذل البابوات وانحرافات رجال الدين-: [وإذا ما عفونا عن بعض هذا الشذوذ الجنسي والانهماك في ملاذ المآكل والمشرب، فإننا لا نستطيع أن نعفو عن أعمال محكم التفتيش]

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة في الكنيسة هي محكمة التفتيش البابوية، ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم في بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد في هذا الإقليم أو ذاك، ولكن [إنوسنت الثالث][وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيسكيين الجديد أداة قوية للقمع، ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إداراتهم.

وقد تجلى في الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله، وقد تجعله أثرًا بعد عين، فلم تكن تستشعر أي اطمئنان نفسي، وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان، كما تبحث العجائز الخائفات- فيما يقال- عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الهجوع في فراشهن].

وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرًا بالملاحدة والكفار، فإما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مئة ساحة من ساحات الأسواق في أوروبا ليراقبوا أجسام أعدائها -وهم في غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم- تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة، وتحترق وتخمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رمادًا تذروه الرياح].

ولا يفوتنا أن نقول: إن الضحية الأولى لمحاكم التفتيش كانت المسلمين

الأندلسيين الذين أُبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يتخيله الإنسان من الهمجية والوحشية، ثم ظلت تمارس أعمالها على مخالفي الكنيسة وإن لم يكونوا مسلمين أو متأثرين بالحضارة الإسلامية، وانتقلت من أسبانيا إلى بقية أقاليم الكنيسة، وكانت المحكمة الأم لها هي 'المحكمة المقدسة' في روما، ولا يكاد المؤرخون الغربيون يتعرضون للحديث عنها إلا ويصيبهم الاضطراب، وتتفجر كلماتهم رعباً، فما بالك بالضحايا الذين أزهقت أرواحهم والسجناء الذين أذاقتهم ألوان المر والنكال!

وإذا أردنا أن نلقي نظرة عما كان يحدث هناك تفصيليًا فعلينا أن نتأمل تلك القصة التي حدثت بعد الثورة الفرنسية:

بعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية.

تحدث أحد الضباط الفرنسيين فقال: [أخذنا حملة لتفتيش أحد الأديرة التي سمعنا أن فيها ديوان تفتيش، وكادت جهودنا تذهب سدى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها فلم نجد شيئاً يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تظفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت 'دي ليل' استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟!! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً، فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف، فإن قلبي يحدثني بأن السر تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض

كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف، فصفق الضابط 'دي ليل' من شدة فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضئ أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعى يده على كتفي متلطفاً، وقال لي: يابني: لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك!؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيت فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممداً بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى

تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعاً عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجياً حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحاً، وهم يقبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهداً يبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين.

ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة.

كـانوا يلقـون الشـاب المعـذب في هذا التـابوت، ثم يطبـقـون بابه بسكاكـينه وخناجره. فإذا أغلق مزق جسم المعذب المسكين، وقطعه إرباً إرباً.

كما عثـرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشـد ليخرج اللسان معها، ليـقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النسـاء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم].

هذا العذاب كان موجهاً ضد الطوائف المخالفـة من المسيحيين فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين؟؟ ... أشد وأنكى لا شك.

ولذا فقد كانت محاكم التفتيش ومـا صحبها من الفظائع عميقة الأثر في الحس الأوروبي، وسيئـة النتائج بالنسبة للنهـضة التي انبثقت في أوروبا بـعد الثورة على الكنيسة، لقد أصبح العداء للدين المتمثل هناك في الكنيسة ورجالها أمرًا لازمًا لكل صاحب فكر حر أو ضمير حي؛ لأن هذا العداء هو أبسط تعبير عما رآه الناس من أهوال لم يكونوا يتصوروا أن تقع بأيدي رجال من المفترض أنهم رجال دين.

راجع الشيخ محمد الغزالي (التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية).

الدعوة والجهاد في الإسلام وحرية الاعتقاد

دعـوة الإسلام (لا إله إلا الله) تدور حـول مضـمـونين أساسـين هما: إفـراد العـبودية لله وحـده، وتحـرير الإنسان مـن أية سلطة تحول بيـنه وبين إقراره بهـذه العبودية أو إنكارها.

فالآية: ﴿لا إكـراه في الدين﴾ لا تعني فـقط رفض الإسلام إكـراه الناس على الإيمان بواحـدانية الخـالق ولكنها تعني أيضًـا رفض الإسلام لأية سلطة تحـول بين الإنسان وبين حـريته في إقرار هذه العـبودية أو إنكارها. وحيث إن الإسـلام دعوة للعالمين فإن الهدف الذي يحكم علاقته بالآخر هو إبلاغ دعوته إلى الناس وفي إطار هذا الهدف تأتي المنظومـة الإسلامية التي تحدد عـلاقة المجتمع المسلم بالآخـر غير المسلم. فالآخر بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس انتـماء لجنس أو حضارة مغايرة فكما تقول الآية: ﴿ولقد كرمنا بني إدم﴾ كل بني ادم لا فرق بين مسلم وسواه وكذلك: **﴿يا أيها الناس إنا خـلقناكم من ذكر وأنثي وجعلنـاكم شعوبًا وقـبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكم﴾**. وكـما يقـول الرسـول ﷺ في الحديث الشـريف: **«كلكم لآدم وآدم من تراب»** و**«الناس سواسـية كأسنان المشط لا فـضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوي»**.

وكل ما يهدفـه المسلم من الآخر بحسب (المنظومة الإسلاميـة) هو الهداية فكما يقول الرسـول : «لأن يهدي الله بك رجلاً خيـر لك من الدنيا وما فيـها»، و«لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم».

ولجوء المسلمين إلى القوة ـ بحسب مـا يفرضه دينهم ـ لا يكون إلا عندما تكون هي سبيلهم الوحيد لإزالة العوائق التي يضعها الطواغيت للحيلولة بينهم وبين دعوة

الناس إلى الهداية أو عندما يعمل هؤلاء الطواغيت على إكراههم هم أنفسهم على ترك دينهم وكل ذلك في حدود الاستطاعة ووفق شروط قصوي تجعل من استخدام القوة هو الحل الوحيد للخروج من توابيت الاستعباد الأرضية وليس الحل المفضي إلى ما هو أسوأ.

ونستطيع من هذا المدخل السابق أن نتبين المنطلق الأساسي الجهاد في الإسلام.

فحقيقة الجهاد في الإسلام تتباين مع اتجاهين يشيعان عنه. الأول يذهب إلى أن الجهاد في الإسلام هو مقاتلة الكفار حتي إعلانهم الإسلام أو الموت.

وهذا الاتجاه هو ما كان يردده المستشرقون عادة عن الإسلام بقصد التشنيع عليه. ويبدو أن الدكتور أيمن الظواهري ـ كما يفهم من كتاباته ـ ذهب إلى نفس الموقف في تناقض مع آي القرآن ـ كما سنبين ـ دون مبالاة بما يعنيه ذلك من تنفير لغير المسلمين.

والاتجاه الثاني يذهب إلى أن الجهاد في الإسلام لا يرتبط إلا بحالة ضرورة الدفاع عن المسلمين والمجتمع الإسلامي وهو المذهب الذي نادي به الشيخ محمد عبده وينشط الكثيرون الآن من دعاة ترويض الإسلام على ترويجه.

بيد أن ما توافق عليه المفكرون الإسلاميون في العصر الحديث هو أن الجهاد شرع لإزالة السلطات التي تحول بين الناس وبين دعوة (لا إله إلا الله) وراشدهم في ذلك هو قول الصحابي الجليل ربعي بن عامر لقائد الفرس رستم حين سأله لماذا جئتم إلى هنا؟. فقال له: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلما سأله: وماذا تطلبون؟

قال له: الإسلام.

قال: فلو لم نجبكم؟

قال: فخلوا بيننا وبين الناس ندعوهم إلى الله.

قال: فإن لم نفعل؟

قال: الجزية.

قال: فإن لم نفعل؟

قال: الحرب.

إذن فالمسألة تدور حول هدف أساسي هو بلوغ الناس الدعوة إلى الله وأن تكون حرة في خيارها سواء آمنت بهذه الدعوة أو لم تؤمن، ومن ثم فإن السلطات التي تعمل على إعاقة ذلك يجب إزالة رهبتها من خلال إجبارها على دفع الجزية أو بإزالتها تمامًا من خلال الحرب. فذلك هو المقصود من كون أن الهدف من الجهاد هو جعل كلمة الله هي العليا.

بيد أن المشكلة تكمن في التعامل مع النصوص بشكل جزئي وهو ما يتحقق عنه قدر كبير من الالتباس خصوصًا بالنسبة لقضية الجهاد، لأن النصوص الكثيرة التي وردت عن الموضوع في القرآن أتت مواكبة لمسيرة الرسول الجهادية والتي استمرت عشرة سنوات ومستجيبة لما تتطلبه الوقائع التفصيلية التي خاضها الرسول وصحابته من أحكام. هذا غير ما تشتمل عليه الآيات من توجيه معنوي للمؤمنين.

ولذلك فهناك ثلاث أنواع من الآيات في هذا الموضوع:

* آيات تشتمل على قواعد عامة في العلاقة بين المسلمين والكفار.
* آيات تتعلق بالأحكام الخاصة بالجهاد في وقائعه المختلفة.
* أحكام تتعلق بالتوجيه المعنوي للرسول والمؤمنين.

والخطأ الذي يحدث أن يأخذ البعض أحكام الجهاد والموقف من الآخر (الكفار) من بعض الأحكام التفصيلية في القرآن.

فإذا أردنا أن نلتمس القواعد العامة التي تحكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الكفار علينا أن نذكر قاعدتين أساسيتين.

• **القاعدة الأولى:** هي حرية العقيدة، وذلك لقوله تعالى: ﴿لا إكراه في

الدين﴾ وعلى الرغم من أن المعني هنا كوني ويتحدث في شئون العقيدة ومن ثم لا يمكن نسخه حيث لا نسخ في أحكام العقائد فإن قوله تعالي: **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين﴾**. هو قول حاسم لا يحتمل أدني احتمال للنسخ لأن الشطر الأول من الآية يتحدث عن أن الله نفسه لم يشأ ذلك فكيف يجوز لغيره أن يشاء ما يخالف مشيئته، وهكذا يأتي الاستنكار على أن يفكر الرسول ﷺ مجرد التفكير في ذلك في شطر الآية الأخير.

ولا يعقل بأي شكل من الأشكال أن يأتي استنكار الله في القرآن لهذا الأمر العقائدي بكل هذا الحسم ثم يأتي البعض حاملاً حديثًا يتعلق بواقعة من الوقائع ليقول لنا إن هذا الحديث نسخ الآيتين! إن مثل هذا الكلام لا ينقض الآيتين فقط وإنما ينقض المعني العام المقصود من الدين كله والذي يقوم على التكليف وحرية الإرادة والحساب في الآخرة.

• **القاعدة الثانية:** هي التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين من الكفار كما جاء في قوله تعالي في سورة الممتحنة: **﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**

فهاتان الآيتان تمثلان القاعدة الأساسية في التعامل مع الكفار التي يجب أن ينظر للأحكام المتعلقة بالوقائع الجزئية الواردة في الكثير من الآيات الأخري على ضوء هديها.

والآيتان تفرقان بين نوعين من القواعد ينطبقان على نوعين من الكفار.

القاعدة الأولي: وتنطبق على الكفار الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا وهؤلاء لم ينهانا الله أن نبرهم ونقسط إليهم.

القاعدة الثانية: فتنطبق على الكفار الذين قاتلونا في الدين وأخرجونا من

ديارنا وظاهروا على إخراجنا أو فعلوا معنا ما يماثل تلك الأفعال. فهؤلاء ينهانا الله عن موالاتهم مجرد الموالاة ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين.

والقاعدة المفترضة التي ينبغي على المسلمين أن يعاملوا الكفار عامة على أساسها هي القاعدة الأولي أي قاعدة البر بالكفار والقسط إليهم ما لم يثبت العكس أي ما لم يثبت أن الفئة من الكفار التي نحن بصدد الحكم عليها لم تقاتل المسلمين أو تؤذيهم في دينهم. فإذا ثبت على هذه الفئة أنها فعلت ذلك حكم عليها بالقاعدة الثانية (**قاعدة عدم الموالاة**) وكذلك أحكام الجهاد الأخري ولكن دون أن يعمم ذلك على غيرها من الكافرين.

والدليل أن القاعدة الأولي هي القاعدة المفترضة أساسًا في التعامل مع الكافرين أن الله رتب أحكام القاعدة الثانية على الفعل وليس على عدم الفعل: ﴿**الَّذِين قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ**﴾، ومن ثم فهي استثناء من الأولي وليس العكس.

وعلى ضوء ما سبق يفهم ببساطة خصوصية الأحكام الواردة في مثل قوله تعالي: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾.

وقوله تعالي: ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل**﴾.

فالأحكام الواردة في هذه الآيات لا تتعلق بالكافرين عامة وإنما بالكافرين المحاربين الذين تنطبق عليهم القاعدة الثانية ويكون من الظلم الشديد والافتئات والتشنيع على الإسلام أن يزعم البعض تعلق هذه الأحكام بالكفار الذين تنطبق عليهم القاعدة الأولي أي على الكفار بعامة ابتداء، فهذا يعني تطبيق الحكم على غير محله وليس دليل ذلك مخالفة هذا التطبيق للقاعدة الأساسية التي تفرق بين الكفار المحاربين وغير المحاربين فقط وإنما يوجد الدليل أيضًا في نص كل آية بنفسها، ففي نهاية الآية الأولي يأتي قوله تعالي: ﴿**حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ أي

أن هناك حربًا قائمة بالفعل كانت لها الأسباب التي أدت إليها. وفي نهاية الآية الثانية يأتي قوله تعالي: ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾. أي أن الاعتداء من هؤلاء الكافرين على المؤمنين كان سابقًا للحكم.

وإذا قلنا إن قاعدة البر بالكفار والقسط إليهم هي التي تنطبق على الكفار بعامة إلى أن يثبت العكس فإن ذلك لا يرتبط بعهد أمان وإنما هذه قاعدة أساسية مفترضة مع الآخرين من الكفار وإنما يتطلب عهد الأمان حدوث الاحتكاك والتنازع فيكون عهد الآمان هو القاعدة التي تحكم العلاقة بينهم وبين المسلمين بعد نشوب هذا الاحتكاك والتنازع.

وفي ظل القواعد السابقة فإننا نخالف ما ذهب إليه الدكتور أيمن الظواهري أو بعض مناصريه من إباحة قتل الكفار من الغربيين دون تفرقة بين مدنيين أو غير مدنيين. وأن العلاقة بيننا وبينهم يحكمها الإسلام أو القتال ويكفيني الإشارة إلى أن ذلك يتناقض تمامًا مع ما ذهب إليه الشهيد سيد قطب الذي يجله الظواهري فيما ذهب إليه في كتابه (الإسلام والسلام العالمي) ومن ثم فعليه الرجوع إلى الكتاب فإما أن يسلم به وإما أن نستمع منه إلى نقده.

الأخلاق والشرور
بين باباوات الكنيسة والإسلام

انحطاط الكنيسة الكاثوليكية والفساد البابوى

يقول ول ديورانت تحت باب بعنوان (البابوية فى الحضيض (٨٦٧: ١٠٤٩)):

«ظل كرسى البابوية لا ينال إلا بالرشا أو القتل أو رغبات النساء ذوات المقام السامى والخلق الدنئ وبقيت أسرة ثيوفلاكت أحد كبار الموظفين فى قصر البابا ترفع بالبابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها. واستطاعت ابنته مروزيا أن تنجح فى اختيار عيشيقها سرجيوس الثالث لكرسى البابوية (٩٠٤ ـ ٩١٨م) كما أفلحت زوجته ثيودور فى تنصيب البابا يوحنا العاشر (٩١٤ ـ ٩١٨م).

ثم رفعت مروزيا يوحنا الحادى عشر (٩٣١ ـ ٩٣٥م) إلى كرسى البابوية وكان الشائع على الألسنة يوحنا هذا ابنه غير شرعى من سرجيوس الثالث.

وأصبح حفيدها هو الباب يوحنا الثالث عشر وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة فى قصر لاتيران.

وعندما حاكمه الأمبراطور أوتو اتهمه الكراذلة بأنه زنى بخليلة ابنه وضاجع أرملته وابنة اختها وأنه حول قصر الباب إلى ماخور للدعارة.

أما بندكت العاشر (١٠٣٢ ـ ١٠٤٥م) الذى عين بابا فى الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من روما غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد الحكام فلما أتبعه منصب البابوية باعها إلى جرويجورى السادس (١٠٤٥ ـ ١٠٤٦م) بألف (أو أقى) رطل من الذهب.

«ولم يكن تأخذ ليحصل سيرة البابا اسكندر السادس (١٤٣١ ـ ١٥٠٣) الذى استباح كل المقدسات باسم القداسة واعتدى على كل المحرمات واعتمد على أسرته أسرة يورحيا فى الحصول على لذاته وشهواته وأمراله وكانت ابنته لدكريسا ورجيا

سفاحة دموية وكان أبوها المقدس يدربها على ممارسة الشهوات»

ويقول الراهب «درابير» في كتابه العلم والدين: إن الكنيسة كفرت كل من يخالف أمرها في كل العلوم حتى الطبيعة والجغرافيا، وأقامت محاكم التفتيش التي عاقبت ما يبلغ عددهم ثلاثة مائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا من بينهم عالم الطبيعة «برونون.. أما البابوات فينقل عنهم قول الراهب «جروم»: أن عيش القساوسة ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والاغنياء المحرفين، ولقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطًا عظيمًا واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ويروى مجموعة دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم».

وينقل «بريتراند راسل» في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية عن المؤرخ (جويسكشيجارديني) قوله: (لم يكن هنالك إنسان أشد اشمئزازًا مني من طموح القساوسة وشُحِهِم وخلاعتهم، ليس فقط لأن كلاً من هذه الرذائل مكروه لدى، ولكن لا كلا منها وجمعيها غير لائق إلى أقصى حد من أولئك الذين يعلنون أنفسهم رجالاً لهم صلات خاصة بالله، وأيضًا لأنها رذائل تعارض الواحدة منها الواحدة الأخرى بحيث أنها يمكن أن توجد معًا فقط في طبائع فريدة للغاية. وأيا فان وظيفتي في بلاط بابوات عديدة أن أروق لهم المجد من أجل مصلحتي الخاصة لو لم يكن ذلك كذلك لكنت أحببت مارتن لوثر حبي لنفسي لا لكن أتحرر من القوانين التي تفرضها المسيحية كما هي مفهومة ومفسرة بعرف عام علينا بل لكي أرى هذا الحشد من الأنذال يعادون إلى مكانهم المناسب لهم بحيث يكون في الوسع إجبارهم إما أن يعيشوا بدون رذائل أو بدون سلطان.

أما عن وضع البابوات فى ذلك الوقت فمنذ البداية تقريبًا احتجبت الحقائق الدينية والمثل العليا التى دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام واستترت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية. وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريبًا على أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة. إذ أنها أوقعت نفسها فى شراك التقليد العتيقة الخاصة بالتضحية الإنسانية، وبالتطهر الدموى لدى «المثراتية»، «ديانة تطورت عن الزراد شتية وانتشرت فى حكم القياصرة» وبتفاصيل النواحى الدقيقة لطبيعة الاله.

ومن عجب أن أصبع الحبر الأثرودى «الأترسكى» الزعظم المخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التى تؤكد للناس تعليم يسوع الناصرى!؟ وكذلك أيضًا أوقعها العقل الإغريقى الإسكندرى فى أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهنى حتى إذا وقعت الكنسية فى معمة هذا التطاحن الذى لا مفر فيه بين هذه المتفارقات المتناقضة، اضطرت أن تصبح اعتقادية «دوجماتيقية» متصلة تأخذ بالمذهب الاعتقادى، ذلك أنها حين يئست من حلول أخرى لخلافاتها الفكرية التجأت إلى الإجراء التعسفى.

وقد كان قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالاً مكيفين وفق مذاهب واعتقاديات مقررة وثابتة، حتى إذا ما آن أوانت توليهم منصب الكردلة أو البابواية فى العادة كهول. قد ألفوا من الكفاح السياسى ذلك الضرب الذى يقصد به غاية قريبة مباشرة، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى الناس فقد نسوا ذلك الأمر، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنسية، التى هى قوتهم هم، متسلطة على شئون البشر، وكانوا فى سبيل تويدة تلك القوة علي أتم استعداد للمساومة مع أى شىء من الشهوالت المستقرة فى قلوب البشر، ونظرا لأن كثير من كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة، ولم يسمحوا بأية مناقشة فيه. كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون فى مخالفة لا

لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين منها.

وعندما اقاموا الحـروب الصليبية لأهداف سياسيـة دنيوية تتعلق بهم فى الأساس كانوا يأذنون لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش، وأن يعمل السيف والنار واغتصـاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن تصوره العـقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا مالك فـرنسا مسالمة والقصص التى تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكى لنا من أضراب القساوة والنضال البـشع ما يتضائل إزاء بشاعته قصة أى استشهاد للمسيحيين على أيدى الوثنيين، وهى فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفًا لما هى عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها.

وكان هذا التـعصب الأسود القاسى روحـًا خبيـثًا لا يجوز أن يخالف مـشروع حكم الله فى الأرض.

(١) راجع هـ. ج. ويلز. معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج١.

العلمانية تصرع
المسيحية الكاثوليكية فى أوروبا

الويلات التى عانتها العلمانية على يد الكنيسة الكاثوليكية فى مطلع العصور الوسطى يبدو أنها تجرعها للكنيسة الآن بما فى ذلك محاكم التفتيش نفسها فقد اشتكى الكرسى الرسولى، ممثل الكاثوليكية العالمية، مما وصفه بـ 'العلمانية المتشددة'، والتى قال إنها صارت تطرد الكنيسة من الحياة العامة فى أوروبا.

وقد وصل الكرادلة إلى حد الشكوى مما وصفوه بأنه محاكم تفتيش جديدة تشهدها القارة الأوروبية، ولكن ضد الكاثوليكية هذه المرة.

ويشير رجال الدين المسيحيون إلى سياسات من قبيل الحظر الفرنسى على الرموز الدينية البارزة فى المدارس، ورفض الاتحاد الأوروبي الإشارة إلى الله فى الدستور الأوروبى المقترح، فضلا عن مقترحات أسبانيا بتشريع الزواج المثلى.

ويقول الكاردينال مارتينو، الذى يرأس المجلس البابوى للعدل والسلام، لبرنامج بهيئة الإذاعة الخارجية للبى بى سى ' شهدت الكنيسة خلال ألفى عام من تاريخها توجهات من هذا القبيل صعودا وهبوطا، والآن صار هناك توجه لإقصاء الكاثوليك، الذين يتم الدفع بهم فيما يشبه الجيتو'.

مسألة بوتيليونى

وفى إنجلترا وويلز أصدرت الكنيسة الكاثوليكية منشورا قبل الانتخابات الأوروبية، قالت فيه إنه يجب على الناخبين أن يهتدوا بالتعليم الدينى حينما يصوتون.

وقال الكاردينال مارتينو 'هناك أمور متفق عليها من جانب السياسيين والمؤمنين، ويجب أن يكون للكنيسة صوت'.

وينظر البعض فى الفاتيكان إلى حالة روكو بوتيليونى - وهو صديق مقرب للبابا السابق- على أنها من أبرز الحالات على تغلب الفكر العلمانى فوق الاعتبارات المسيحية.

فقد سمت إيطاليا بوتيليونى ليتولى منصب مفوض الاتحاد الأوروبى للعدل

وللشؤون الداخلية، غير أن نواب الاتحاد الأوروبى رفضوا ترشيحه بعد أن وصف الجنسية المثلية بأنها 'خطيئة'.

وقال بوتيليونى لبرنامج' أساينمنت بالبى بى سى' إنه شعر أنه تم إقصاؤه 'بسبب معتقداتى الدينية'.

وقال: 'فى ظل نظام حكم ليبرالى يتم تقييم الخط السياسى والفكر السياسى لمرشح ما، ولكن لا يتم فرض محكمة تفتيش أو شرطة تفرض على المرشح ما يخالف ضميره'. 'هذا هو ما فُعل ضدى فى ساحة البرلمان الأوروبى'.

ووصف بوتيليونى موقف نواب البرلمان الأوروبى بأنه 'انتهاك للفصل الليبرالى التقليدى بين العام والخاص'. وليست هذه المرة الأولى التى يعرب فيها الفاتيكان عن قلقه إزاء تأثير العلمانية فى أوروبا، ففى عام ١٨٧٠، وبعد فقدان الدول البابوية صار لدى الفاتيكان، الذى انحسر سياسيا فى المدينة الدولة الصغيرة، توجها متشككا إزاء الحكام العلمانيين وقال البابا بيوس الخامس إن 'الله طُرد من الحياة العامة بالفصل بين الكنيسة والدولة'.

ولكن فرانكو بافونشيللو، خبير العلوم السياسية بجامعة جون كابوت بروما، يبدى اندهاشا من مخاوف الفاتيكان بأن أوروبا العلمانية والكنيسة الكاثوليكية صارا على نهج تصادمى، إذ يقول 'إذا كان من قاسم مشترك فى أوروبا فهو الدين الواحد، فهذه قارة اصطبغت منذ وقت طويل بمسيحيتها'.

غير أن بافونشيللو يعتقد أن بعض الأوروبيين ربما 'عادوا إلى قيم مسيحية أكثر تشددا' بسبب تأثير الإسلام.

وقد حث البابا الأساقفة الأسبان على الدفاع عن القيم التقليدية معارضين الإصلاحات التى يسعى الحزب الاشتراكى الحاكم لإدخالها، وهى التى تشمل تشريع الزواج المثلى الذى تشير استطلاعات الرأى إلى أن غالبية الأسبان يؤيدونه، فضلا عن تدريس فكرة الدين بشكل عام فى المدارس، دون التركيز على المسيحية وحدها.

'التكيف دون اندثار'

ولكن الفاتيكان يقول إن هذا البرنامج يهدف إلى 'تعزيز احتقار الدين أو الجهل به'.

غير أن وزير العدل الأسبانى خوان فرناندو لوبيز أجويلار يصر على 'إننا نقوم بوظيفتنا فحسب، فنحن محاسبون أمام المواطنين وليس أمام الكنيسة الكاثوليكية'. ويضيف 'هذا مجتمع علمانى. نحن مستعدون لاحترام كافة الحريات الدينية فى أسبانيا، ولكننا مستعدون أيضا لتعزيز مبادرتنا التشريعية والقيام بواجباتنا'.

ويقول أجويلار إن الكنيسة الكاثوليكية 'جاهرت وبقوة' بتصريحاتها بأن استخدام الواقى الذكرى وممارسة الجنس قبل الزواج 'خطية'.

ويضيف 'وبالنظر إلى اعتبارات من هذا القبيل.. من الصعب جدا إتاحة الفرصة لحل وسط'.

ولكن الآب فيفاس سوتو، من مجموعة منتدى الأسرة الأسبانية يقول إن مقترحات الحكومة 'لا تؤثر فى الكنيسة فحسب - بل تؤثر فى المجتمع بأكمله'. ويضيف 'حينما يتم تناسى كرامة الحياة البشرية ويتم تشجيع الإجهاض، حينما يتم الحط من قدر الزواج وما يحمله من ثراء، فإن مكونا أساسيا من المجتمع يتم تقويضه'.

وفى وسائل الإعلام الأسبانية جاءت ردود الأفعال على تصريحات الفاتيكان مختلطة، فقد اتهمت صحيفة إلبايس اليومية البابا بإثارة 'توترات سخينة'، غير أن الموندو حثت الجانبين على 'الهدوء'.

وتقول الكاتبة كاياتانا ألفوريز ديتوليدو، وهى من الكتاب البارزين بالموندو 'إن فحوى الرسالة [الحكومية] هى أن الكنيسة الكاثوليكية مؤسسة عتيقة، ورجعية تماما، وترتبط بحقبة فرانكو، وبالحقبة المظلمة لمحاكم التفتيش فى تاريخ أسبانيا'.

وتضيف 'غير أن هذا بالطبع ليس صحيحا تماما، فأمام الفاتيكان معضلة

عويصة يتعين حلها، وهى كيفيــة مواكبة الحداثة، وفى الوقت ذاته عدم فقدان مبدأ أخلاقى أساسى، إذ عليه التكيف دون اندثار '.

انتقدت الكنيسة الكاثوليكية خطط الحكومة الأسبانية للموافقة على زواج المثليين وقارنت ذلك بإطلاق فـيروس فى المجتـمع. وتقول الحكومة إنهـا تتوقع أن يكون بوسع المثليين الزواج بشكل رسمى فى العام القادم.

ويؤكد مـشروع القـانون التراجع الكبـير فى نفـوذ وسلطة الكنيســة فى أوروبا الغربية. والوضع كـذلك بالأخص فى أسبانيا التى كانت حـتى وقت قريب واحدة من أكثر الدول الأوروبية إخلاصا لمبادئ الكنيسة الكاثوليكية.

'عملة مزيفة'

وأثار مشـروع القانون الذى يتيح زواج المثليـين المتوقع أن توافق عليـه الحكومة الاسبانيــة هذا الأسبوع ردود فعل حـادة من أساقفة الكنيســة الكاثوليكية. ووصف متحدث باسم الكنيسة زواج المثليين بأنه مثل العملة المزيفة.

وقال خوان انطونيو مارتـينيز كامينو ان القانون 'سيفرض فـيروسا على المجتمع وشيئا زائفا ستكون له عواقب سلبيــة على الحياة الاجتماعية'. وكان رئيس الوزراء الاشتراكى خوسيه لويس رودريجيز ثاباتيرو قد تولى منصبه فى إبريل نيسان الماضى وعقـد العزم على إلغـاء ما وصفـه بالميـزات التى تحظى بها الكنيـسة وخلق دولة علمانيــة عن طريق تخفـيف القوانين الخـاصة بالطلاق والإجـهاض. وأثارت هذه التغييرات غـضب الكنيسة التى تراجع تأثيرها على الأسبان بدرجة كـبيرة منذ وفاة الجنرال الديكتاتور فرانشيسكو فرانكو عام ١٩٧٥.

وكان نظام فرانكو تربطه علاقات قوية بالكنيـسة. وتشير استطلاعات الرأى إلى أن نحو نصف الأسبان لا يحضرون القداس والصلوات فى الكنائس مطلقا الآن.

والخلاصـة أنه يمكن القول أن هذا الذى يحـدث للكنيسة الكاثولـيكية على يد العلمانية ليفسر إلى حد كبير حـالة الترقب والحزر التى يليها الغربيون تجاه الإسلام حيث يقـر منظروهم أنه الدين الوحيـد المستعصـى على التراجع أمام العلمـانية بل ويتقدم بقوة كل يوم داخل الغرب نفسه برغم كل المؤثرات المضادة .

شخصية الرسول ﷺ وأخلاقه المثلى

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير ـ رضى الله تعالى عنه ـ: لما قفل رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ من غزوة حنين، تبعه الأعراب يسألونه فألجؤوه إلى شجرة، فخطف رداءه وهو على راحلته فقال: «رُدوا علىَّ ردائى أتخشون علىّ البخلَ؟ فلو كان عَدد هذه العصاة نعمًا لقسمتهُ بينكم ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا»(١).

وحدثنا المطهر بن على أنا محمد بن إبراهيم أنا عبد الله بن محمد ابن جعفر أنا أبو الحريش الكلابى نا أحمد بن عبد الله المخرومى نا عيسى بن يونس عن عمر بن عبدالله مولى غفرة حدثنى إبراهيم بن محمد من ولد على قال: كان على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ إذا وصف النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قال: كان أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم بذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من واه بديهة هابه، ومن خالطة معروفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ(٢).

عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ: أن رجلاً أتى النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فسأله فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى الرجل قومه فقال: أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء رجل ما يخاف فاقة(٣).

عن صفوان بن أمية قال: أعطانى رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٨٤)، والبغوى فى «شرح السنة» (٣٦٨٩)، وابن حبان (٤٨٢٠)، قلت: ورجاله ثقات.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) مطولاً، والحديث ضعفه الألبانى فى «المشكاة» (٥٧٩١).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٢)، وأحمد (٣/ ١٠٧).

يوم حنين؛ وإنه لا يغض الخلق إلى، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلى.

عن رافع بن خديج ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: أعطىٰ رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كلاً منهم مائة الإبل.

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ: أن رجلاً جاء إلى النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فسأله أن يعطيه فقال النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ: «ما عندى شىء، ولكن ابتع على، فإذا جاءنى شىء قضيته». فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ قول عمر، فقال رجل من الأنصار، يا رسول الله: أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالاً.

فتبسم رسول الله وعرف البشر فى وجهه بقول الأنصارى، ثم قال: بهذا أمرت[1].

حدثنا أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لو أن عندى أحدًا ذهبًا لأحببت أن لا يأتى على ثلاث ليالٍ وعندى منه دينار. أجد من يقبله منى ليس شيئًا أرصدهُ فى دين على»[2].

أخبرنا عبد الواحد المليجى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف نا محمد بن إسماعيل نا قتيبة نا يعقوب بن عبد الرحمن عن أبى حازم، عن

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي فى «الشمائل» (٣٤٨)، وابن أبى الدنيا فى «مكارم الأخلاق» (١/١١٨)، وهو عندى عبد الرزاق (١١/١٠٨) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً، والحديث ضعفه الألبانى فى «مختصر الشمائل» (٣٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧٢)، وأحمد (٤/١٦٦)، وأبو داود (٢٩٨٥).

سهل بن سعد ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: جاءت امرأة ببردة، قالت: يا رسول الله إنى نسجت هذه بيدى أكسوكها، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فحسنها رجل من القوم، فقال: يا رسول الله أكسنيها، قال: نعم فجلس ما شاء الله فى المجلس، ثم رفع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت سألتها إياه، وقد عرفته أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل: والله ما سألتها إلا لتكون كفنى يوم أموت، قال سهل فكانت كفنه[1].

عن أبي سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنا ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، قال: «ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحدًا عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»[2].

فى تواضعه صلى الله عليه وسلم

عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ أن امرأة عرضت لرسول الله ﷺ فى طريق من طرق المدينة فقالت يا رسول الله إن لى إليك حاجة فقال: «يا أم فلان اجلسى فى أى سكك المدينة شئت أجلس إليك». قال فقعدت فقعد إليها رسول الله ﷺ حتى قضت حاجتها[3].

قال أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ: إن كانت الوليدة من ولائد المدينة تجئ فتأخذ بيد رسول الله ﷺ؛ فما ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت[4].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٣٣٣)، وابن ماجه (٣٥٥٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٦)، وأحمد (٣/ ١١٩)، وأبو داود (٤٨١٨).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٤)، وأحمد (٣/ ١٣٧).

عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: كان النبى ﷺ ما يسأله سائل قط إلا أصغى إليه، حتى يكون هو الذى ينصرف، وما يناول أحد يده قط إلا ناولها إياه؛ فلم ينزعها حتى يكون هو الذى ينزعها[١].

عن يحيى بن عقيل، قال سمعت ابن أبي أوفى يقول: كان رسول الله يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة. وكان لا يأنف، ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له حاجته[٢].

حدثنا المطهر بن عمى أنا محمد بن إبراهيم أنا عبد الله بن محمد بن جعفر نا عبد الله بن محمد البغوى نا يحيى بن أيوب المقابرى أنا أبو إسماعيل المؤدب عن مسلم الأعور عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعقل الشاه، ويجيب دعوة المملوك[٣].

عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: كان رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب، ولقد كان له درع عند يهودى؛ فما وجد ما يفكها حتى مات[٤].

---

(١) أخرجه الحارث فى «مسنده» (٢/ ٨٨٢).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (١٤١٤)، وفى «الكبرى» (١/ ٥٣١)، والدارمى (٧٤)، وابن حبان (٦٤٢٣)، والحاكم فى «المستدرك» (٤٢٢٥)، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٠٠٥).

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني فى «الكبير» (١٢/ ٦٧)، والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٩١٥).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي فى «الشمائل» (٣٢٦)، والحديث صححه الألبانى فى «مختصر الشمائل» (ص١٧٧)، وأصله عند البخارى (٢٠٦٩) بنحوه.

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ أنها سلئت: ما كان النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يصنع فى بيته؟ قالت: ما يصنع أحدكم فى بيته يخفص النعل ويرقع الثوب[1].

دخل نفر على زيد بن ثابت ـ رضى الله تعالى عنه ـ، فقالوا له: حدثنا أحاديث رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ، قال: ماذا أحدثكم؟ كنت جاره، وكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فكتبته له، فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، قال: هذا أحدثكم عن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ[2].

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصارى نا أبو عبد الله محمد بن عقيل بن الأزهر البلخى نا الزعفرانى نا عفان بن حماد عن حميد، عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: لم يكن شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك[3].

عن أبى هريرة وأبى ذر ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قالا: كان النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يجلس بين ظهرانى أصحابه فيجئ الغريب ولا يدرى

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٥٤٠)، وأحمد (٦/ ١٠٦)، والحديث صححه الألبانى في تعليقه على «الأدب المفرد».

(٢) ضعيف: أخرجه البغوى فى «شرح السنة» (٣٦٧)، والترمذي فى «الشمائل» (٣٣٦)، والبيهقى فى «السنن» (٧/ ٥٢)، والطبرانى فى «الكبير» (٥/ ١٤٠)، والأوسط (٨/ ٣٠١)، وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٣٣٩٩): إسناده حسن، وضعفه الألبانى فى «مختصر الشمائل» (٢٩٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢)، والبغوى في «شرح السنة» (٣٣٢٩)، والترمذي (٢٧٥٤)، وفى الشمائل» (٣٢٨)، والحديث صححه الألبانى فى «الصحيحة» (٣٥٨).

أيهم هو حتى يسأل، وطلبنا إلى النبى - صلى الله تعـالى عليه وسلم - أن نجعل له مجلسًـا يعرفه الغـريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دكـانًا من طين، فكان يجلس عليه، ونجلس بجانبيه[1].

عن عبد الله بن مسعـود - رضى الله تعالى عنه - قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، قال: وكان أبـو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - قال وكانت إذا جاءت عقبة رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - قالا: نحن نمشى منك قال: «ما أنتما بأقوى منى وما أنا بأغنى عن الأجر منكما»[2].

عن سعيـد بن سليم، قال: سمعت أنس بن مـالك - رضى الله عنه - يقول كان رسول الله - صـلى الله تعالى عليه وسلم - إذا غزا أو سـافر أردف كل يوم رجلاً من أصحابه[3].

عن أنس بن مالك - رضى الله تعالـى عنه - قال حج رسول الله - صلى الله تعـالى عليه وسلم - على رجل رث، وعليـه قطيفـة لا تساوى أربعـة دراهم، فقال: «اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٩٨)، والنسائي (٤٩٩١)، وفى الكبرى» (٣/ ٤٤٢)، وقال الألبانى فى «الإرواء» (١/ ٣٢) سنده صحيح.

(٢) حـسن: أخرجـه أحـمـد (١/ ٤١١)، والنسائـي فى «الكبيـر» (٥/ ٢٥٠)، والحـاكم فى «المستدرك» (٤٢٩٩)، وقـال: على شرط مسلم، وقال الهيـثمى فى «المجمع» (٩٦٨١): فيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) ضعيف: أخرجه البـخارى فى «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٨٠)، وأبو يعلى (٤٢٣٩) مطولاً، وفيه سعيد بن سليم وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، وضعفه غيره.

(٤) صحـيح لغيـره: أخرجه التـرمذي فى «الشمـائل» (٣٢٧)، وابن ماجـه (٢٨٩٠)، وقال الألباني فى «صحيح الترغيب» (١١٢٢): صحيح لغيره.

عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: كان رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام: سأل عنه، فإن كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره وإن كان مريضًا عاده[1].

عن خالد الحذاء عن أبى قلابة أخبرنى أبو المليح قال: دخلت على عبدالله بن عمرو ـ رضى الله تعالى عنهما ـ فحدثنا : أن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ ذكر له صومى، فدخل على فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بينى وبينه، فقال: أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام؟ قال: قلت يا رسول الله، قال خمسة؟ قلت يا رسول الله قال: سبعة؟ قلت: يا رسول الله قال: تسعة قال: أحد عشر، ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لا صوم فوق صوم داود شطر الدهر صم يومًا وأفطر يومًا»[2].

أخبرنا عبد الواحد المليجى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى نا محمد بن يوسف نا محمد بن إسماعيل حدثنى إسحاقنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ: أن رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ جاء إلى الساقية فاستسقى، فقال: العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ بشراب من عندها، فقال: «اسقنى». قال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقنى». فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعلمون فيها فقال: «إعملوا فإنكم على عمل صالح»، ثم قال:

---

(١) موضوع: أخرجه أبو يعلى (٣٤٢٩) مطولاً، وقال الألبانى فى «الضعيفة» (١٣٨٩): موضوع.

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩).

«لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أصغ الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه»[1].

عن ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: أتى النبى ﷺ رجل يكلمه فأرعد، فقال: «هون عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[2].

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسول الله كل جعلنى الله فداءك متكئًا، فإنه أهون عليك، قال: فأصغى برأسه حتى كاد أن يصيب جبهته الأرض فقال: «لا: بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[3].

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو شئت لسارت معى جبال الذهب، جاءنى ملك إن حجزته لتساوى الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت نبيا عبدًا وإن شئت نبيا ملكا، فنظرت إلى جبريل عليه السلام فأشار إلى أن ضع نفسك، فقلت: نبيا عبدًا».

قالت: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه البخارب (١٦٣٦).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم فى «المستدركش (٤٣٦٦) عن أبى مسعود، ولم أره عن ابن مسعود، والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٧٠٥٦).

(٣) صحيح لغيره: أخرجه أبو الشيخ فى «أخلاق النبى ﷺ» (٦٦)، وقال الألبانى فى «الصحيحة» (٥٤٤): وهذا إسناد ضعيف الوصافى قال عنه الحافظ فى «التقريب»: ضعيف لكنه قد توبع.

(٤) ضعيف: أخرجه البغوى فى «شرح السنة» (٣٦٨٣)، وأبو يعلى (٤٩٢٠)، والحديث ضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٢٠٤٥).

عن أبى سلمة قال: سألت أبا سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ فقال: رأيت رسول الله ﷺ يسجد فى الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين فى جبهته[1].

عن عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله»[2].

عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ «ذلك إبراهيم»[3].

عن جابر ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره، قال: فالتفت إلينا فرآنا قيامًا، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودًا، فلما سلم قال: «إن كدتم آنفا تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائمًا فصلوا قيامًا وإن صلى قاعدًا فقولوا قعودًا»[4].

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: دخلت على رسول الله ﷺ: فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال فى بجنبه، متكئًا على وسادة من أدم حشوها ليف، فرفعت بصرى فى بيته فوالله ما رأيت شيئًا يرد البصر غير أهبة ثلاثة فقلت: يا رسول الله أدع الله فليوسع على أمتك، فإن فارسًا والروم قد وسع عليه، وهم لا يعبدون الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٦٦٩)، ومسلم (١١٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٦٩)، وأحمد (٣/ ١٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٢).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٤١٣)، وأحمد (٣/ ٣٣٤)، والنسائى (١٢٠٠).

فقال: «أوفى هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عـجلوا طيباتهم فى الحياة الدنيا»[1].

عن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قـال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[2].

وحدثنا المطهر بن على أنا محمد بن إبراهيم أنا عبد الله بن محمد نا محمود الواسطى نا زكريا بن يحيى الواسطى نا عباد بن عـباد نا مجالد عن الشعبى عن مســروق، عن عائشة ـ رضى الله تعـالى عنها ـ قالـت: دخلت على امرأة من الأنصار؛ فرأت فراش رســول الله عباءة مثنية، فانطلقت فبعـثت إلى بفراش فيه صوف، فدخل رسول الله ﷺ فقال: «رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله على جبال الذهب والفضة». قالت فرددته[3].

عن ابن مـســعـود ـ رضى الله تعـالى عنه ـ أن رســول الله ﷺ نام على حصير، وقـام وقد أثر فى جسده، فقال له ابن مســعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل، فـقال: «مالى وللدنيا وما أنا والدنيـا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[4].

عن عائشة ـ رضـى الله تعالى عنها ـ قالت: «مـا شبع رسول الله ﷺ من

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).

(٣) صحـيح لغيره: أخـرجه الطبراني فـى «الأوسط» (٦/ ١٤١)، وابن سعد فى «الطبـقات» (١/ ٤٦٥)، وقال الألباني فى «الصحيحة» (٥/ ٦٣٤): رجالـه ثقات الشيخين غير مجالد وفيه ضعف، لكن وجدت له شاهد. . . فذكره.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والحديث صححه الألبانى فى «الصحيحة» (٤٣٨).

خبز شعير يومين متتابعين، حتى قبض[1].

عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ: **أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلبة، فدعوه فأبى أن يكل وقال: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من الخبز الشعير**[2].

عن سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير ـ رضى الله تعالى عنه ـ يقول: **الستم فى طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد فى الدقل ما يملأ بطنه**[3].

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: **لقد كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، وما هو إلا الماء والتمر، غير أن جزى الله نساء من ا لأنصار جزاء، كن ربما أهدين لنا شيئًا من اللبن**[4].

عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: **كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير**[5].

عن أنس عن أبى طلحة ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: **شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر؟، فرفع رسول الله ﷺ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤١٤).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧٧)، وأحمد (٤/٢٦٨)، والترمذى (٢٣٧٢)، وابن ماجه (٤١٤٦).

(٤) صحيح : أخرجه البخارى (٢٥٦٧) بنحوه، ومسلم (٢٩٧٢) بنحوه.

(٥) حسن: أخرجه أحمد (١/٢٥٥)، والترمذي (٢٣٦٠)، وفى «الشمائل» (١٤٧)، وابن ماجه (٣٣٤٧)، والحديث حسنه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه» (٣٧٠٣).

عن بطنه عن حجرين[١].

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: والله ما شبعت آل محمد ﷺ من خبز بر ثلاث ليال ولاء، حتى قبضه الله إليه[٢].

عن أنس ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: لقد مشيت إلى رسول الله ﷺ مرات بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد سمعته يقول: «ما أصبح بآل محمد صاع من طعام، وإنهن يومئذ تسع أهل بيوتات»[٣].

عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: أتت فاطمة النبى ﷺ بكسرة خبز شعير فقال: «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاث»[٤].

وأخبرنا أبو محمد الجوزجانى أنا أبو القاسم الخزاعى أنا الهيثم من كليب نا أبو عيسى نا عبد الله بن عبد الرحمن نا روح بن أسلم أبو حاتم البصرى نا حماد ـ سلمة أنا ثابت ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ «لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لى ولبلال طعام يأإكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[٥].

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذى (٢٣٧١)، وفى «الشمائل» (١٣٣)، والحديث ضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذي» (٤١٣).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠) دون قوله: «فلما قبضه..» ولم أقف عليه.

(٣) صحيح: أخرجه البخارب (٢٠٦٩)، والترمذي (١٢١٥).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٣/٢١٣)، وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٧٠٧٨): رواه أحمد الطبرانى ورجالهما ثقات.

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٣/٢٨٦)، والترمذى (٢٤٧٢)، وفى «الشمائل» (١٣٧)، وابن ماجه (١٥١)، والحديث صححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥١٢٥).

عن عمر بن الحارث الخزاعى - أخى جويرية بنت الحارث - رضى الله تعالى عنهـا - قالك لا والله مـا ترك رسول الله - صلى الله تـعالى عليـه وسلم - عند موته دينـارًا، ولا درهما ولا عبـدًا، ولا أمة، ولا شيـئًا؛ إلا بغلتـه البيـضاء، وسلاحًا، وأرضًا تركها صدقة[1].

عن عائشـة - رضى الله تعالى عنها - قالت: مـا ترك رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - عبدًا ولا أمة، ولا شاة، ولا بعيرًا[2].

عن أبى هريرة - رضى الله تعـالى عنه -: أن رسـول الله - صلى الله تعـالى عليه وسلم - قال: «لا يقتسم ورثتى دينارًا ولا درهمـا ما تركت بعد نفقة نسائى ومئونة عاملى فهو صدقة»[3].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبـد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفـيان نا مسلم بن الحجاج نا أبو بكر بن أبى شيـبة نا خلف بن خليفـة عن يزيد بن كيسـان عن أبى حازم، عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قـال: خرج رسول الله ﷺ ذات يـوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر قال: «ما أخرجكما مـن بيوتكما هذه الساعة؟». قالا: الجوع يا رسول الله، قـال: «أما والذى نفسى بيده لأخـرجنى الذى أخرجكما قـوموا». فقـاموا معه، فـأتى رجلاً من الأنصار، فـإذا هو ليس فى بيته فلمـا رأيته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقـال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟». قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جـاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - وصـاحبيـه ثم قال: الحمـد لله ما أجد اليـوم أكرم أضيـافًا منى،

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٢٧٣٩)، والنسائي (٣٥٩٤)، و«الكبرى» (٤/ ٩٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣٥)، وأحمد (١٣٦٦).

(٣) صحيح: أخرجه البخارب (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠).

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المدية فقال له رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - : إياك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - لأبى بكر وعمر: «والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»(١).

قال أبو بكر - رضى الله عنه -: يا رسول الله قد شبت قال ﷺ: «شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»(٢).

أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو نعيم الإسفرينى أنا أبو عوانة أنا يونس هو ابن عبد الأعلى أنا ابن وهب أنا عمرو بن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة - رضى الله تعالى عنها -، قالت: ما رأيت رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لواته، وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك فى وجهه، فقلت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وإذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عئشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿عارضٌ ممطرنا﴾(*) (٣).

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضى أنا أبو نعيم الإسقراييني أنا أبو عوانة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذى (٢٣٦٩)، وابن ماجه (٣١٨٠٠).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم فى «المستدرك» (٢٣١٤)، وصححه الحاكم، والحديث صححه الألبانى فى «الصحيحة» (٩٥٥).

(*) الأحقاف : ٢٤.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩).

نا يوسف هو ابن مسلم نا حجاج عن ابن جريج عن عطاء، قالت: عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ كان النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ، إذا رأى مخيلة تغير وجهه وتلون، ودخل وخرج، وأقبل وأدبر، ، فإذا أمطرت السماء سرى عنه، قالت: وذكرت له الذى رأيت، قال: «وما يدريه لعله، ، قال قوم: ﴿فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا﴾الآية»[1].

أخبرنا عبد الواحد المليجى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف نا محمد بن إسماعيل نا أبو اليمان أنا شعيب بن الزهرى عن هند بنت الحارث الفراسية، أنا أم سلمة زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: استيقظ رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة فزعًا، يقول: «سُبحان الله ماذا أنزل من الخزائن وماذا أُنزل من الفتن من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد به أزواجه ـ لكى يُصلين رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة»[2].

جامع صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله تعالى عنما ـ، قلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شهدًا ومبشرًا ونذيرًا﴾(*) وحرزًا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٢٦)،، والترمذي (٢١٩٦).

(٣) الأحزاب: ٤٥.

ولن يقبضه الله حتى يُقيـيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله وتفتح بها أعين عُمى وآذان صم وقلوب غلف.

عن حزام بن هشام ابن حـبيش - صاحب رسول الله ﷺ - قـبيل البطحاء يوم الفتح -، عن أبيـه عن جده حبـيش بن خالد وهو أخو عـاتكة بنت خالد، وكنيتهـا أم مبعد: أن رسول الله ﷺ حين أخرج من مكة خـرج مهاجرًا إلى المدينة؛ وهو وأبو بكر ومـولى أبى بكر عام بـن فيهـرة ودليلهـما عبـد الله بن الأريقط الليثى؛ مـروا على خيمى أم معبـد الخزاعية وكانت برزة، تحـتبى بفناء الخيمة ثم تسقى وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا ليـشتروها، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد».؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، «قـال: هل بهـا لبن؟». قـالت: هى أجـهـد من ذلـك، قـال: «أتأذنين أن أحلبها؟». قالت: بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبًا فـاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمـسح بيده ضرعـها، وسمى الله جل ثـناؤه ودعا لها فى شـأنها، فتخـاجت عليه، ودرت واجترت، فـدعا بإناه يربض الرهط، فحلب فيـها ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حـتى رويت، وسقا أصحابه حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم أرضـوا ثم حلب فيـها ثانيًا بعـد بدء، حتى مـلأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها وارتلحوا عنها. فقل ما لبث حـتى جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزًا عجافًا يتـساوكن هزلى ضحى، مخهن قليل،، فلمـا رأى أبو معبد اللبن عجـب، وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم مـعبـد؟ واتلشاء عـازب حيـال لا حلوب فى البيت،، قـالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حـاله كذا وكذا.

قال: صفيه لى يا أم معبد، قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه لم

تعبه ثجلة، ولم تزر به صقلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج. وفى أشفاره وطف. وفى صوته صهل. وفى عنقه سطع. وفى لحيته كثاثة. أزج أقرن. إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء. أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. حلو المنطق، ، فصل لا نزر، ولا هذر، ، كأن منطقه خرزات نظم تحدون. ربعة؛ لا يأس من طول، ولا تقتحمه عين من قصر. غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرآ. له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا، وأن أمر تبادروا لأمره. محشود. محفود. لا عابس. ولا مفند.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذى ذكر من أمره ما ذكر بمكة.

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبد الصمد الجوزجانى أنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى الترمذي نا سفيان بن وكيع نا جميع بن عمرو بن عبد الرحمن العجلى حدثنى رجل من بنى تميم من ولد أبى هالة زوج خديجة يكنى أبا عبدالله عن ابن لأبى هالة، عن الحسن بن على ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال: سألت خالى هند بن أبى هالة، وكان وصافًا، عن حلية النبى ﷺ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئًا، فقال: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة. رجل الشعر. إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين أزج الحواجب. سوابغ فى غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين، له ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوليتهم. يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما منه.

ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقة ومسألته، حتى إذا كان أصحابه ليستجلبوا لهم ويقول: «إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه» ولا يتقبل الثناء إلا من مكافئ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام.

حدثنى إبراهيم بن محمد ـ من ولد على بن أبى طالب ـ قال: كان على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ إذا وصف رسول الله ﷺ قال: لم يكن بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد،، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط كان جعدًا رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان فى وجهه تدوير،، أبيض مشرب أدعج ششن العينين أهدب الأشفار، جليل المشاش، والكتد، أجرد ذو مسربة، ششن الكفين والقدامين، إذا مشى تقلع كأنما ينحط فى صبب، وإذا التفت التفت معًا، بين كفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين. أجود الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة. وألينهم عريكة. وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابة، ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته. لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[1].

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، وفى «الشمائل» (٦)، وابن سعد فى «الطبقات» (١/ ٤١١)، والحديث حسنه الألبانى فى «الصحيحة» (٥/ ٨٢).

زواج الرسول ﷺ
من أمهات المؤمنين

زواج الرسول ﷺ من أمهات المؤمنين

أطمح أن يعيننى الله على كتابة أربعة كتب تتعلق بالرسول ﷺ بشكل مباشر كتابى هذا وكتاب يبرز صورته الخُلقية والخَلقية ، وجوانب شخصيته بوجه عام.

وبالنسبة لهذين الكتابين فما كنت أُعِد لكتابتهما فى الواقع القريب ولكن تتابع الهجمات فى الغرب على شخصية الرسول ﷺ وهو الذى حتم عليّ وجوب الرد على هذه الهجمات والحاجة الشديدة إلى إبراز جوانب شخصيته الفذة أمام الغرب الجاهل أو المتجاهل، بل وأمام العالم أجمع بوجه عام.

أما مشروعى الأساسى الذى وهبت له حياتى الفكرية فيتضمن فى الأساس كتابين آخرين هما:

* لماذا جاء محمد؟

* هل كان حقًا محمد رسول الله؟

وهذا الكتاب الأخير يمثل أحد أهم طموحاتى الفكرية وإن كنت أعتقد أن التراجع الفكرى للعالم الإسلامى الآن يبعد به عن النضج الذى يؤهله لاستيعاب كتاب كهذا، ولكن ما أريد الإشارة إليه هنا فى سياق الرد على هجمات الغرب، أننا سنناقش بعض القضايا التى يجب أن يتضمنها بشكل أصيل ذلك الكتاب المشار إليه، وما قد يلاحظه البعض من الجرأة فى هذا التناول فهو لا يشكل سوى قدر بسيط من الجرأة التى يحتمها موضوع الكتاب المذكور ومن ثَمَّ فقد يكون تناولنا لبعض هذه القضايا هنا هو بمثابة مدخل لتناولنا لها فى ذاك الكتاب.

أما أهمية الحاجة إلى هذه الجرأة فتكمن فى أن كون الداعى لها هو عقم الجدل القائم فى هذا الإطار بين الشرق والغرب، إذا ما يتم عادة التجاهل من جانب المسلمين للقضايا الحساسة التى يتناولها الغربيون أو بقول أدق محترفو الدس والتشكيك من مغرضيهم بالهجوم والطعن أو الالتفاف حولها دون التعرض للنقاط المحورية فيها وهو الأمر الذى لا ينتج عنه سوى اطراد المضى فى مسارين متوازيين بينهما بين الأخذ والرد.

وأعتقد أن علاقة الرسول ﷺ بزوجاته والافتراء عليه بالتطرف الشهوانى يمثل أحد أهم هذه القضايا.

ومن ثم فإننى أرجو ألا يمثل ما يحتمه تناول مثل هذه القضايا فى مواجهة الغربيين من تجرد علمى حرجًا نفسيًا وحساسية دينية لدى القارئ المسلم بوجه خاص؛ لأن العبرة فى مثل هذه الأمور بالنتائج وليس ببعض عناصر الآليات الجدلية بين الإيمان والفكر المتجرد التى يقتضيها تناول مثل هذه القضايا.

وما أراه هو أن الخطأ الأكبر الذى يحدث عادة فى هذا الموضوع هو فى النظر إليه من الخارج، فلا يكون الشاغل لنا عند تقدير الأمور سوى هذا العدد من الزوجات وكأن المسألة هى مجرد قياسى كمى أمبيريقى لا يثير سوى الغرابة والاستعجاب خصوصًا بالنسبة للغربيين الذين يحكمهم فى النظر إلى هذا الموضوع المفهوم الكاثوليكى الأحادى فى الزواج. وقد يكون الأمر مقارب لذلك لدى المسلمين الحاليين نتيجة لتأثرهم الحضارى بالغرب، أما بالنسبة للعرب فى ذاك العصر فإنهم لم يكونوا يرون فى هذا العدد من الزوجات رقمًا غريبًا سواء كان ذلك فى الجاهلية أو الإسلام، والأمر مفهوم فى الجاهلية، وأما فى الإسلام فقد كان يحدث ذلك كثيرًا من خلال تعدد الزواج والطلاق والزواج مرة أخرى وكان يقع ذلك لدى الكثير من الصحابة أنفسهم والهاشميين منهم بالذات مثل على وابنه الحسن رضى الله عنهما.

أقول: من هنا الخطأ الكبير فى النظر إلى الموضـوع من الخارج وانشغالنا فقط بهذا الرقـم دون الدخول فى الوقائع التـفصـيلية التى تكشف عن أبعـاد كثـيرة وعميقة للغاية فى الموضوع تفسر لنا غايات وطبيعة هذه الزيجات.

كـذلك فإنه من الخـطأ الأكبـر أيضًـا أن ننظر فى الأمور الإنسـانيـة بشكل استقلالى منفصل عن الواقع المحيط بها فـإذا قيل إنه مادام كان لمحمد هذا العدد الكبير من الزوجات فإن ذلك يفسر مسـاعيه الشهوانية، فلا بد أن نقول علينا أن ننظر فى أى واقع كانت تتم فيه هذه الزيجات حتى نختبر الأمر حقيقة، هل هو يعبر عن روح شهوانية أم لا؟

لأن التعبير عن هذه الروح الشهوانية يتطلب عدة أمور لا بد من توافرها حتى يتحقق هذا الانسجام الشهوانى وأول ذلـك الاستقرار والأمان (وكل البالغين من يعلمون هذا جـيدًا) فأين ذلك من الرسـول الكريم ﷺ الذى أحاطت به أمم العرب وغـير العرب من خارج المدينة والـيهود والمنافقـون داخل المدينة وكان لا يفتأ يخرج من مـعركة حتى يدخل أخرى، وليس الأمر كـما هو مصور للناس الذين لا يعرفون سوى غزواته الشـهيرة، ولكم أن تنظروا هذا المثال فقط للسنة الثالثة من الهجرة الذى لا يعلم معظم الناس عنها شيئًا سوى أنها قد وقعت بها غزوة أحد. ولكن الحقيقة أنه قد وقـعت بها غزوة غطفان وغزوة بحران وغزوة أحد وغزوة حمران الأسد.

وقد يقال: إن الغازين الكـبار مثل هولاكو ونابليون كانت علاقـاتهم النسائية معروفـة، أقول: هؤلاء كانوا قادة جيـوش عظيمة معدة بالجـملة سلفًا من قبل ولكن الرسول ﷺ كان فردًا يصنع أمـة وتتكالب عليه الأمم من كل جانب، ومن ناحيـة أخرى فهناك فارق كـبير بين أن تجمع حولك المحظيات للمعـاشرة الجنسية البحتة، كما كـان يفعل هؤلاء القواد، وبين أن تتخذ أزواجًا تصنع منهم مؤسسة دعوية كاملة كما حدث مع زوجات الرسول ﷺ.

هذا إذا ما توقف الأمر عند حد الغزوات لكن محمدًا لو على افتراض كونه إنسانًا غير نبى فقد كان هو المشرع والقاضى والراعى الاجتماعى والمعلم وإمام المسجد فكيف من الممكن أن تترك له سيطرة الروح الشهوانية عليه التفرغ لكل ما سبق؟

أعود فأقول: كما أن غلبة الروح الشهوانية تتطلب قدرًا ولو قليلا من التنعم، أى على أدنى حد فيما يتعلق بالمسكن والمطعم والفراش، فأين ذلك بالنسبة لحياة الرسول ﷺ الذى كان مسكن كل زوجة من زوجاته مجرد حجرة ملحقة بالمسجد لا يكاد يكون بها فراش على الإطلاق سوى حصير وعباءة منطوية، الأمر الذى أثار دهشة عمر بن الخطاب نفسه. ولا يقاد فى البيت نار طعام لمدة شهرين أو ثلاثة ولا يشبع أهل البيت من الشعير يومين أو ثلاثة متتابعين كل ذلك رغم توافر ثروات الجزيرة العربية بين يديه نتيجة مغانم الغزوات والحروب؟

ولكن كل ذلك باستثناء النزير. . النزير، كان يوزع على فقراء المسلمين وعلى تأليف قلوب أعداء الدعوة.

فأين هذا مما تفرضه متطلبات الشهوة؟

إن البشر جميعًا يعلمون أثر التنعم فى الوجوه والأجساد وطالب الجمال لا بد أن يكلأه بالوفرة والنعيم فإذا كان هو طالبًا ذلك من زوجاته فكيف يتركهم لهذا التقشف المريع إلى الدرجة التى يعلنون فيها ثورتهم على هذه الحياة؟

إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى عام المجاعة تغير وجهه إلى السواد إثر أكله للزيت بدلا من السمن فما بالك تلك اللواتى لا يأكلن فى بيوتهن زيتًا أو سمنًا؟

ولكن قبل هذا أريد أن أشير أن تناول موضوع زواج الرسول ﷺ فى إطار كتاب عام حول الدفاع عنه فى مواجهة هجمات الغرب يؤدى بنا إلى معالجة أحداث كل قصة من قصص زواجه فى مجرد سطور قليلة وهذا ما يؤدى بدوره

إلى الإخلال فى إيضاح أبعاد هذه الأحـداث وقد رأيت خلال البحث والدراسة أنه لو تم شرح الأبعاد التفصيلية لهـذه الأحداث لمثلت شهادة غاية فى الإيجابية للرسول لدى العـقول الغـربية لا يمكن لكن يندر أن أقـيمت الدراسة الموسـعة المخصصة لهذا الموضوع هذا ما يحدو بى إلى افتراء كتابة كتاب خامس أخصصه لموضوع زيجات الـرسول ﷺ فقط. وقد تشكل ندرة الدراسـات الموسعة فى هذا الموضوع بعض العـذر لتلك العقول التى لم تسـتطع استيعـاب هذه الأبعاد وهى تفقد الرؤية الشاملة للـموضوع خصوصًا وإنها تنطلق من مفـهوم حضارى أحادى كرسته المسيحيـة الكاثوليكية فى أوروبا على امتداد التاريخ، وهو صعوبة تصور الزواج بغير واحدة فقط وإن كان الذى يحدث عـمليًا الاستمتاع بعدد غير محدود من الخليلات ويشير الدكـتور عبد الرحمن بدوى عن هذا الموضوع: «إن المفهوم الكاثوليكى للأخلاق الجنسية مفهـوم ضيق ومستحيل التحقيق ولا يمكن لأى رجل عاقل أن يوافق عليـه؛ لأنه حسب هذا المفهوم يجب الامـتناع مطلقًا عن كل لذة جـسدية حـتى المسمـوح بهـا فى حالة الزواج، فـقد وصل الأمـر بالقديس بولس أن يشرع التبتل للجنسين».

فإن كان هذا المفـهوم الكاثوليكى الضيق للزواج يتعلق بالأشـخاص العاديين فما بالك فيما يتعلق بالشخصيات السامية، إن ذلك يفسر مدى الغرابة التى ينظر بها الغربيون إلـى موضوع زواج الرسول المتعدد، ولو خرج الغـربيون قليلاً من رؤيتهم المتقوقعة حول الذات التى يحاكموننا بها لوجدوا أن هذا التعدد كان أمرًا شائعًا جدًا فى الأمم الأخرى.

ولنبدأ القصة الآن منذ اللحظة الأولى.. لحظة زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنا.

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها امرأة ذات مال وجمال وحسب ونسب وكثر حولها الطالبون من أشراف الرجال بحسب ذاك العصر، وقد كشفت صديقتها نفيسة بنت منبه عن خبيئة نفسها ورغبتها فى الزواج من محمد ﷺ الذى تولى القيام بتجارتها، ولمست فيه الصدق والأمانة، فانطلقت من عندها إلى الرسول ﷺ وكان حينئذ فى الخامسة والعشرين والسيدة خديجة فى الأربعين من العمر.

قالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال: ما بيدى ما أتزوج به.

قالت: فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب؟

فرد متسائلاً : ومن ؟

قالت: خديجة بنت خويلد.

فقال: إن وافقت فقد قبلت.

وعلى الرغم من فضل خديجة رضى الله عنها ومالها وجمالها ولكن عند النظر إليها رضى الله عنها من خلال السياق الذى نتحدث عنه فإننا يجب أن نتذكر قول عائشة للرسول ﷺ فى لحظة من لحظات الغيرة المستثارة: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش».

لكن الرسول ﷺ عاش سعيداً مع السيدة خديجة حتى رحيلها فى عمر الخامسة والستين أى أنها كانت تبلغ فترة اقترانه بها ما بين الأربعين والخامسة والستين ومع ذلك لم يسعَ للزواج بأخرى وهذا عادة مما يدفع الكتاب به تهمة الشهوانية، ولكننا هنا نريد أن نناقش أموراً أخرى. فعند النظر المجرد قد يقال

إنه قد يصعب على رجل كمحمـد يقوم على تجارة زوجته ذات المال العريض أن يغضب هذه الزوجة بالزواج بأخرى ولهذا فإن ما أريد إثباته هنا هو أنه لم يتسر (أى لم يتخذ ملك يمين) أيضًا وكان هذا أمـرًا اعتياديًا فى ذاك العصر ولا يلام عليه أحد بل عـاش قبل البعثة فى حيـاة تعبد وتأمل مستغـرقًا فى ذلك فى غار حراء.

فأين الحياة الشـهوانية فى كل ما سبق.. رجل مستـغرق فى العبادة على ملة سيدنا إبراهيم والتأمل؛ ثم فى الدعوة إلى الله حتى عـمر الخمسين كيف يمكن أن يتهم بالشهوانية بله التطرف فيها؟.

ولننظر ما حدث بعد ذلك.

لم يذكر أن الرسول ﷺ هو الذى سعى إلى الزواج بعد خديجة رضى الله عنها وإنما الذى حـدث هو أن خولة بنت حكيم امرأة عثمـان بن مظعون رضى الله عنها هى التى سألته: يا رسول الله ألا تتزوج؟

قال: من؟

قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا

قال: فمن البكر؟

قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر.

قال: فمن الثيب؟

قالت: سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه.

قال: اذهبى فاذكريهما علىَّ.

فتم الزواج والدخول بالسيدة سودة رضى الله عنها والزواج بالسيدة عائشة ثم الدخول بها بعد ثلاث سنوات.

بالنسبة للسيدة سودة فلم تذكر عنها خولة بنت حكيم لا مال ولا جمال وإنما

ما ذكـرته هو: «آمنت بك واتبعتك عـلى ما أنت عليه». وهو الأمـر الذى يذكر بأنها كانت من السابقات إلى الإسلام فهجرتها إلى الحبشة مع زوجها وابن عمها السكران بن عمر فى سبيل دعوة.الإسلام وبعد موت زوجها عاشت وحدتها مع أبيها وأخيهـا اللذين كانا على الكفر (أسلم الأخير فيمـا بعد) فكان زواجه منها إكرامًا وإنقاذًا لها ويوضح الأمر أكثـر أنها كانت على مشارف الكبر وقد تنازلت عن يومها وليلتها لعائشة بعد أن أسنَّت.

وهذه أرملة أخرى مات عنها زوجها فى موقـعة بدر وهى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد ترملت وهى فى سن الثامنة عـشرة من عمرها ولم توصف بالجمال، ومن الواضح أن وضعها هذا أثر فى والدها تأثيرًا مؤلمًا ويروى البخارى أنه عرضها على أبى بكر فلم يجبه بشىء وعـرضها على عثمان فقال: بدا لى ألا أتزوج اليوم فـوجد عليهـما وانكسر وشكـا حاله إلى النبى ﷺ. فقال: يتزوج حفـصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عـثمان من هى خير من حفصة، فزوجه عمر.

وأظن أن الأمـر هنا أوضح ما يكون في أنه قـائم على المواساة والتـرابط مع عمر.

ومن المهاجرات إلى الحبشة أيضًـا أم سلمة رضى الله عنها وهى راوية القصة المشهورة عن الجدل الذى ثار بين عمرو بن العـاص قبل إسلامه نيابة عن الكفار وجعفـر بن أبى طالب نيابة عن المسلمين أمـام النجاشى ملك الحبـشة وبعد أن مات زوجهـا المجاهد إثر جرح أصـيب به فى غزوة أحد خطبهـا أبو بكر فردته وخطبها عمر فرفضته فبعث إليها النبى ﷺ فقالت: مرحبًا برسول الله.

ولن يعيب الأمر بعد ذلك أنها كانت ذات جمال وحسب ونسب ورجاحة فى العقل شهدت بها مواقف عديدة.

وهذه أرملة أخرى استشـهد زوجها عبد الله بن جحش فى مـوقعة أحد ولم

يذكر عنهـا مال أو جمال هـى السيدة زينب بنت خزيـمة أم المساكين (سـميت بذلك لكثرة إنفاقها وشفقتها عليـهم) فتزوجها الرسول ولكنها رضى الله عنها ما لبثت أن توفيت بعد شهرين أو أكثر قليلاً.

ومن السابـقات فى الإيمان أيضًـا ميـمونة بنت الحارث رضـى الله عنها وإن كانت عظيـمة الأصهـار (خالة خالد بن الوليـد وعبدالله بن عبـاس، قد تزوج أخواتها العباس وحمـزة وجعفر بن أبى طالب وأبو بكر وعلى رضى الله عنهم) ولكن لم يذكر عنها مال أو جمال. وكونـها من السابقات فى الإسلام وتزوجها الرسول بعد فتح مـكة فإن ذلك يظهر أنها كانت قد تعدت سـن الشباب عندما تطلقت من زوجـها الأول وترملـت من الثانى فـإن زواج الرسول ﷺ منهـا شديد الوضوح فى التكريم.

وليلاحظ القـارئ معنا أنه يكاد يكون أغلب الزيجـات التى عقـدها الرسول ﷺ هى من الأرامل السابقات فى الإسلام أو المـهاجرات اللواتى هاجرن إلى الحبشة وفـقدن أزواجهن وكأنه يشهد الدنيـا جميعًا أنه خيـر وفى لهؤلاء النسوة اللواتى تحملن عبء الدعـوة الكبير فى طورها الأول وتحـدين الدنيا جميـعًا فى سبيلها فكان ﷺ خير كفيل لهن بعد فقدانهن لأزواجهن .

وبالنسبة لقصة زواجه من زينب جحش فـإن الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) تقول فى كـتابها نساء بيت النبوة حاكـية عن تبنى الرسول ﷺ لزيد بن حارثة: «أخـذ محـمد ﷺ بيد (زيـد بن حارثه)، وقام به إلى المـلأ من قريش فأشهدهم أن زيدًا ابنه وارثًا وموروثًا.

ودُعى الغلام «زيد بن محمد».

وغداة ليلة القـدر، كان زيد فى الأربعة الأولين السابقيـن إلى الإسلام. وعندما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين، كـان زيد وحمزة بن عبدالمطلب: «زينب بنت جحش».

وكرهت زينب، وكره أخوها «عبـدالله بن جحش» أن تزف الشريفة المضرية إلى مولى، رغم أصــله العربى الصريح أبًا وأمًـا ، حتى نزل فيـهما قـوله تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وتزوجت «زينب» زيدًا... طاعة لأمر الله ورسـوله، وإلزامًا بالمبدأ الإسلامى: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

زواج بأمر الوحى:

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، فما نسيت «زينب» قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا، دخل بيت آلها رقيقًا!

وقاسى «زيد» من صدها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ غير مرة، ما يجد من سوء معـاملة زينب، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحـتمال، حتى أذن الله تعالى ففارقها زيد، وتزوجها ابن خالها ﷺ بأمر الوحى.

وفى طلاقها ثم زواجها، مرويات شـتى ما كنت لأتشاغل بها، لولا أنها عُزيت بأخَرَة إلى من خاضوا فيها من أعداء الإسلام، من المبشرين والمستشرقين، وصُرِفتْ عن الرواية الإسلامية، وكأن فيها ما يريب!

في رواية لابن سعد والطبرى من طريق الواقدى، أن النبى ﷺ جاء بيت زيد يطلبه فلم يجده، وقامت إليه زينب فُضُلا فأعرض ﷺ عنها، فقالت: ليس هو ههنا يا رسول الله فأدخل بأبى أنت وأمى، وأبَى رسول الله أن يدخل، وإنما عجِلتْ إليه زينب لَمَّا قيل لها: رسول الله ﷺ على الباب، فولّى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يُهمهم لا يكاد يُفهَم منه، إلا أنه أعلن: «سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب».

وجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضتُ عليه فأبى.. فخرج زيد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغنى أنك جئت منزلى، فهلا دخلت بأبى أنت وأمى..؟ ثم سأله، كما كان يسأله من قبل: أفأفارقها؟ فقال ﷺ فيخبره، فيقول له: «أمسك عليك زوجك»[1].

أغلب الظن أن «الدكتور محمد حسين هيكل» لم يقف على هذه المرويات فذهب إلى أنها - يقينًا - من مفتريات المستشرقين والمبشرين: «الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله، وأنه يكفى لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه، هى ابنة عمة رسول الله ﷺ.. و.. وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا، قبل أن تتزوج زيدًا.. وأنه الذى خطبها على زيد مولاه.

إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص: من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان الله مقلب القلوب.

وكان يكفى الدكتور هيكل القول بأن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء، ثم

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠١) والنقل منه، وتاريخ الطبرى، السنة السادسة (٣/ ٤٢ ط أولى، حسينية من طريق الواقدى، ونحوه فى المحبر (٨٥) والسمط ١٠٨.

(٢) حياة محمد ﷺ: ٢٩٢ - ٢٩٤.

أشفق مما يمكن أن يقول النــاس فى خرقة لعادة لهم قديمــة متأصلة، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه[٢].

لكنه أضاف: «أفـيقى بعد ذلك أثر لهــذه الأقاصيص التى يكررها المستــشرقون والمبشرون.

ولكنها شهــوة التبشير المكشوف تارة، والتــبشير بتسم العلم أخــرى، والخصومة القديمــة للإسلام تأصلت فى النفوس منــذ الحروب الصليبيــة، هى التى تملى على هؤلاء جميعًا ما يكتبون»[١].

ولا حيلة لنا فى عزو هذه المرويات إلى المبشــرين، مع وجودها فى كتب لقدامى المؤرخين والمصنفين والمفــسرين المسلمين، مطبوعة متــداولة بين الدارسين والقراء، لهذا قــدِّرتُ له أن فحص هــذه المرويات ونقدها، إسنادًا ومــتنًا، أولى من إنكارها وحملها على شهوة التبشير ومفتريات الاستشراق.

رواية الواقدى، فى طبقات ابن سعد، عن الستــر الذى حركته الريح، قال فيها الحافظ ابن حجر: «وسنده ضعيف»[٢].

وهى عند الطبــرى من طريق الواقــدى، ومعــها الرواية الأخــرى من طريق ابن عبــدالأعلى الصدفى، وكلتاهما من مــراسيل التابعــين، وقد اقتصــر الطبرى على ذكرهما فى (تاريخه) ولم يشر إليهما فى (تفسيره) لسورة الأحزاب.

قال القاضــى عياض: «. . . فإن قلت: فمــا معنى قوله تعالى فــى قصة زيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (الأحزاب: ٣٧). فاعلم أكــرمك الله، ولا تسترب فى تنزيه النبــى ﷺ من هذا الظاهر، وأن يأمر

---

(١) فتح البارى: ١٣/٣٢١ ط أولى.

(٢) حياة محمد ﷺ: ٢٩٢ - ٢٩٤.

(٣) فتح البارى: ١٣/٣٢١ ط أولى.

(٤) مجمع الزوائد: ٩/٢٤٧ ط بيروت.

زيدًا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين، وأصحُّ ما فى هذا ما حكاه أهل التفسير عن على بن حسين، أن الله تعالى كان أعلَمَ نَبِيَّه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكرها إليه زيد قال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله» وأخفى ممنه فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيزوجها، مما الله مُبديه ومُظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

قال القشيرى: وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى ﷺ وفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوَّجها لزيد؟ وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبى ﷺ إياها لإزالة حرمة التبنى وإبطال سنته، كما قال عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ (الأحزاب: ٤٠). وقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وقد قيل: كان أمره لزيد بإمساكها قمعًا للشهوة وردًّا للنفس عن هواها، وهذا إذا جوَّزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها، ومثلُ هذا لا نُكرةَ فيه، لما طُبِعَ عليه ابنُ آدم من استحسانه الحسنَ، ونظرةُ الفُجْاءة معفو عنها، ثم قمع نفسه عنها وأمر زيدًا بإمساكها.

وإنما تُكَر تلك الزيادات التى فى القصة والأولى ما ذكرناه عن على بن حسين، وحكاه السمرقندى، وهو قول عطاء، واستحسنه القاضى القشيرى، وعليه عوَّل أبو بكر بن فورَك وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير، قال: والنبى منزه عن النفاق وإظهار خلاف ما فى نفسه، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٨).

قال: وليس معنى الخشية هنا الخوف، وإنما معناه الاستحياء، أن يستحى منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس، كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيْه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعتبه الله على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلَّه الله له،

كما عتبه على مراعاة رضى أواجه فى (سورة التحريم: ١) بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ، كذلك قوله ههنا: ﴿تَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [١].

* * *

بعد فحص النظار لما مرَّ من مرويات، ونقد القاضى عياض - عالم المغرب المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤هـ - أضيفُ من مصادرنا الموثقة، مما صح من (صحيحه) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذا. . . الحديث.

وفى تفسير آية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧). أسند البخارى عن أنس #: أنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش وريد بن حارثة ٪.

وقد استوفى الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع من كتاب التفسير بصحيح البخارى، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته، ثم قال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها، والذى أوردته عنها هو المعتمد، والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك: خشيةُ قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى، بأمر لا أبْلَغَ فى الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذى يُدعَى ابنًا، ووقوعُ ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبطُ فى تأويل متعلق الخشية، والله أعلم»[٢].

(١) القاضى عياض: الشفا (٢/١٦٦ - ١٦٨) ط الحلبى هـ - ١٩٥٠م.

(٢) فتح البارى ٨/ ٣٧١، وقابل على: الاستيعاب ٤/١٨٤٩، وتفسير الطبرى ٢١/٧٥، والإصابة ٨/ ٩٢، وعيون الأثر ٢/ ٢٠٤.

زينب بنت جحش

وأحب أن أعلق على ما كتبته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) بالتالى:

- من الغريب أن الدكتور محمد حسين هيكل والدكتورة بنت الشاطئ العالمة المحققة يسردان بلا تشكك أن الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦). قد نزلت فى زينب بنت جحش وليست هناك أى رواية صحيحة فى ذلك وإنما جاء فى حديث صحيح رواه أحمد أنها نزلت فى فتاة من الأنصار رفض أهلها زواجها من رجل يسمى جليبيب، ولكن الفتاة وافقت عليه دون جبر عندما رأت أن رسول الله ﷺ أراد ذلك. والأصح من هذا هو تفسير ابن عباس للآية (راجع ابن كثير) أنها «عامة فى جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول» فالآية شديدة الوضوح فى أنها تقرر قاعدة عامة تتعلق بما ينبغى أن يكون عليه موقف المؤمن أو المؤمنة بما يأتى به شرع الله أى أن الأمر أكبر كثيرًا من أمر حالة زواج.

وخطورة تفسير الآية برواية زواج زينب بنت جحش هى أن الرواية تذكر أمرًا يجب أن نربأ بالرسول ﷺ عنه وهو إجبار زينب بنت جحش على الزواج من زيد فكيف يفعل ذلك فى بنت عمته وهو الذى أهدر زواج فتاة كان قد أجبرها أهلها على ذلك وزوجها ممن تريد.

وكل ما يتعلق بأمر زينب فى هذا الشأن أنه ألح عليها فى الزواج من زيد بن حارثة لحبه حتى وافقت على ذلك.

- أن زينب بنت جحش حين زواجها بالرسول ﷺ كانت تبلغ الخامسة والثلاثين من العمر (الإصابة عن الواقدى: ٨/ ٩٣، وعيون الأثر ٢/ ٣٠٤) ومهما كان جمالها فهو فى مرحلة بداية الزوال، أى أن الأمر لا يستحق المعاناة (بحسب نظرة الغربيين إليه) بالنسبة لرجل لديه فتاة صغيرة بجمال عائشة يحبها وتحبه ومن ناحية أخرى بإنه شىء يفوق المنطق ألا يكون الرسول ﷺ لم ير ابنة عمته متبرجة من قبل طوال خمس وثلاثين سنة على فرض جدلى بصحة الروايات الضعيفة المذكورة ولم تكن آيات الحجاب قد نزلت قبل ذلك إلا بقليل جدًا.

- أن ابن كثير فى تفسير آية «... ﴿... أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...﴾ (الأحزاب: ٣٧). ذكر هذا الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن أسامة بن زيد قال: كنت فى المسجد فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه فقالا يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ قال فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت على والعباس يستأذنان فقال ﷺ: أتدرى ما حاجتهما؟ قلت: لا يا رسول الله قال ﷺ: لن أدرى. قال: فأذن لهما قالا: يا رسول الله جئناك لتخبرنا أى أهلك أحب إليك قال ﷺ: أحب أهلى إلىّ فاطمة بنت محمد: قالا: يا رسول الله ما نسألك عن هذا قال: فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية».

والسؤال الآن هل كان يرضى بنو هاشم معاناة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة؟

وألا يكون زواج الرسول من ابنة عمته تعويضًا لها عن المعاناة التى تسبب

فيها تلك الزيجة التى ألح عليها فى قبولها خصوصًا وأنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من العمر وهو أمر يقلل فرص زواجها كما أنه من ناحية أخرى وهو أمر غاية فى الأهمية لم يتزوج من هاشمية حتى هذه اللحظة فكيف يكون حريصًا على توثيق صلاته بكل القبائل ولا يمنح أهل عشيرته هذا الشرف؟!

ومن المهاجرات إلى الحبشة أيضًا أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وقد كان موقفها خطيرًا للغاية فقد أسلمت على الرغم من أن أباها أبا سفيان كان سيد قريش وزعيم الكفر، وبعد أن هاجرت مع زوجها عبيد الله إلى الحبشة ارتد زوجها عن دين الإسلام فعاشت فى محنة عظيمة بين غربتها وحيدة فى أرض الحبشة وبين العودة إلى أبيها زعيم الكفر المنتظر فى مكة ولكن فرج الله يأتى بخبر خطبة الرسول لها من النجاشى ملك الحبشة.

ولكن فضلاً عن كون السيدة أم حبيبة من المهاجرات إلى الحبشة فهناك بعد آخر فى أمر زواجها وهو كونها ابنة زعيم الكفر وسيد قريش والعمل على الترابط مع الأمم المعادية من خلال المصاهرة مع زعمائهم كان نهجًا متظمًا للقادة العظام على امتداد التاريخ تمليه بديهيات السياسة والمثل الأعظم على ذلك هو زواج الإسكندر الأكبر من ابنة ملك الفرس بعد أن هزمه فى الحرب، ومحاولة نابليون بونابرت الزواج من أخت قيصر روسيا المناوئ له على الدوام.

وفى هذا السياق يأتى زواج الرسول من جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيى ابنتى زعيمى قومهما فالأولى بنت الحارث بن ضرار زعيم بنى المصطلق وقد وقعت فى الأسر بعد هزيمة أهلها وقتل زوجها فحررها الرسول ﷺ وتزوجها «وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله فأرسلوا ما بأيديهم قالت: (الراوية السيدة عائشة رضى الله عنها): فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها» رواه أحمد وأبو داود بإسناد

صحيح.

لقد تسبب زواجه منها إعتاق مائة أهل بيت وكان يصعب ذلك لو لم يفعل ولكن هكذا اندمجت قبيلة كاملة فى صفوف المسلمين بلا انكسار أو نقمة.

والثانية صفية بنت حيى بن أخطب سيد يهود بنى قريظة والنضير بعد أن فتح خيبر أعظم حصون ومعاقل اليهود فى بلاد العرب وبهذا يكون قد صنع بينه وبين اليهود الذين لم ينفكوا أبدًا عن معاداته والتآمر عليه رابط المصاهرة فلا تكون العلاقة بينه وبين اليهود علاقة العداوة وحدها والجدير بالذكر أن الذى اقترح عليه اختصاصها لها من السبى رجل من الصحابة بعد أن وقعت فى سهم صحابى آخر يسمى دحية فجاء الرجل الأول إليه وهو يقول متعجبًا: «يا نبى الله. أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟! ما تصلح إلا لك».

ولكن الرسول ﷺ لم يأخذها جارية وإنما أعتقها وتزوجها.

وهنا يجب الالتفات إلى أمر هام فجويرية وصفية كانتا من أجمل النساء ولكن لو كان هذا البعد وحده هو الدافع للرسول لضمهما إليه لكان اكتفى بضمهما إليه - وقد وقعتا فى الأسر - كملك يمين أما كونه يعتقهما ويتزوجهما فهو أمر يؤكد أن هناك أبعادًا أخرى للمسألة أهمها البعد الذى أشرنا إليه فى أهمية الترابط العضوى مع زعماء القبائل المعادية.

وكان من الممكن أن تمر القصتان السابقتان لدى الغربيين بسلام لولا مشكلة كبيرة للغاية هى أن جويرية وصفية كانتا من أجمل النساء، وهذا فى ذاته أمر كاف جدًا لاتهام الرسول بالشهوانية ونسيان كل الأبعاد الأخرى مع أن مجرد استعراض الأحداث بشىء من التفصيل يكشف بشكل يقينى أنه لم يخطر على باله ﷺ السعى إليهما.

فأولاً: تكشف القصتان أن جويرية وقعت فى سهم قيس بن ثابت وصفية بنت حيى وقعت فى سهم دحية الكلبى. أى إنه ﷺ لو كان متهمًا بأمر

النساء هذا لتحرى البحث عن أجملهن كلما وقع سبى بين المسلمين كما كان يفعل القادة والملوك فى كل الأزمان. ولكن القصتين وفرتا لنا شهادة بأنه لم يكن له أدنى اهتمام بذلك وإلا لما فاته أمر هاتين السيدتين.

وثانيًا: فإنه فى كل من القصتين لم يكن باعث فكر الزواج من عند نفسه ﷺ وأى خبير بالنساء عليه أن يقرأ هذه الرواية الصحيحة جيدًا:

روت السيدة عائشة أن جويرية عندما دخلت على الرسول ﷺ قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى. قال: فهل لك فى خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله. قال: أقضى كتابك وأتزوجك قالت: نعم يا رسول الله. قال: قد فعلت.

الأمر ببساطة إيماء منها بإرادة الزواج منها يكشفه ذكر شرف نسبها ثم ذكر وقوعها فى البلاء ثم استعانتها به ويؤكد قبولها الفورى لقبول الرسول ﷺ الذى جاء فى صورة عرض للزواج منها إكرامًا لها. فإذا أضفنا إلى ذلك البعد السياسى الأصيل لكان تصرف الرسول ﷺ هو التصرف الوحيد المناسب لحالة الواقعة.

وفى القصة الثانية فإن أحد الصحابة هو الذى اقترح عليه الموضوع وهو يتعجب لتركه إياه حيث قال الرجل: «يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟! ما تصلح إلا لك».

وهنا أيضًا من الواضح أن الصحابى نفسه لم يهتم بذكر جمال السيدة صفية وإنما ذكر أنها ابنة سيد قريظة والنضير، أى أن الصحابى نفسه يشير للرسول ﷺ بأهمية البعد السياسى فى الموضوع.

ثالثًا: لو كانت المسألة مسألة سعى نحو النساء لضمهما إليه كملك يمين

وانتهى الموضوع عند ذلك.

رابعًا : لو كـان الأمر مجـرد رغبة فى النســاء لما أعطى السيدتين الخـيار فى الزواج وهذا أمر يملكه أدنى فارس تقع لديه أسيرة ولكن حتى هذا الأمر العادى للغاية بحسب القـواعد المطبقة فى كل الأمم حينذاك ترفع عنه وأعطاهمـا الخيار فى الزواج.

قد يقول البـعض إن هذا الخيار مجرد أمـر شكلى لكن ينفى ذلك أن هذا قد وقع بالفـعل من بعض النســاء فهناك سـيـدة رفضت الزواج منه وهناك أخـرى رفضت خيار حـياة الزهد معه واختارت الحـياة الدنيا وزينتها وطلقهـا حين خير زوجاته بين هذا وذاك.

ومع ذلك فلن أنفى أنه كان لجمالهما البارع دور كبير فى ميل الرسول إليهما لأنه يعيب المناقشة الموضوعية لدى الفريقين المختلفين فى هذا الموضوع أن أعداء الإسلام لا يريدون أن يفسروا لا رهبانية فى الإسلام.

ولكن الغربيين لا ينظرون إلى كل هذه الأمور إلا من خلال دافع الحقد على نبى الإسلام والعـمل على تشويهـه وذلك بدوافع اتهامـه بالشهوانيـة والإفراط فيها.

أما المسلمون الذين يعملون على دحض ذلك فغـالبًا ما تجدهم حريصين على تفسيرها اعتمـادًا على الدوافع السياسية والدعوية والاجتماعيـة، فيقال مثلاً فى تفسيـر كل حالات زواجه ﷺ (باستـثناء حالة خديجة رضى الله عنـها) إنها كانت للتـرابط بين القبـائل أو لبناء مؤســسة دعوية من أمـهات المؤمنين لتـقوية الروابط بينه وبين الصحـابة أو تكريمًا للصحابيات السـابقات) وعلى الرغم من كون كل ذلك صحيـحًا ولكن الاكتفاء به يعنى نفى الصفـة البشرية عنه ﷺ ويتناقض مع نصوص صريحة جاءت فى إحباب الله له فى النساء.

ومشكلة المشاكل هى أن يتم تفسير الإسلام أو العمل على صياغته من خلال

مفــاهيم موهومة عن الدين تربــط بينه وبين الترهب ومجــافاة الحيــاة وهو الأمر الذى جاء الإسلام بنقيضه حيث جاء فى القرآن ﴿ورهبانية ابتدعوها...﴾ وجاء فى الحديث «لا رهبانية فى الإسلام».

وليس عيبًا فى شىء أن يكون القــائد أو الزعيم أو حتى النبــى يحب النساء ويميــل إليهم وتاريخ كل هؤلاء حــافل بذلك وإنما العيب كل العــيب أن يكون ذلك هو المتغلب على دوافعه وأفعــاله وهذا أمر أبعد ما يكون عن واقع الرسول ﷺ بحسب الشواهد التى ذكرناها والشواهد الأكــثر التى سنذكرها لاحقًا أما إذا كان مــستقــيمًا ورائعًــا وفذًا ومنجــزًا لكل ما هو باهر فى كل مــا يفعل فى مختلف متــعلقات الدنيا والدين فإن سمة حب النساء (وحبــهن له كما سنذكر) تعد سمة إضافية لسماته المبهرة ﷺ.

والأمر لا يقف عند هذا فقط، بل إن شخصية الرسول ﷺ التى اصطفاها الله كأعظم شــخصــية فى تاريخ البــشرية كمــا يقرر الإســلام وكما يــقر بذلك المنصفــون من الغرب، أقول إن هذه الشخــصية اتسعت ليس لحب النســاء فقط ولكن للحب المتعمق المتفرد الذى لا يكون إلا بين اثنين فقط وهو الحب المقصود فى كل أحلام البشر فــى كل العصور والذى يحيا الناس ويبيــتون وهم يتحدثون عن قصــصه وهكذا أراد الله ألا يكون هناك أى نــوع من الكمال يراه البــشر فى النفوس الإنسانية إلا ويوجد فيه صلى الله عليه وسلم.

وهذه هى قصته مع عائشة رضى الله عنها.

نعود إلى خولة بنت حكيم لنذكر أنها هى التى اقترحت على الرسول ﷺ الزواج من عائشــة بنت أبى بكر رغم صغــر سنها فلم يكن هذا بالأمــر الغريب حينذاك.

ترى ماذا لو كان الرسول ﷺ رفض هذا الاقــتراح وهو الأمر الذى سوف تتناقله الألسن بالطبع - ألم يكن ذلك يمس أخلص الخلصاء لله ورســوله سيدنا

أبى بكر الصديق رضي الله عنه ؟

ولكن هنا قـد يعترض علىّ بعض قـرائى فيـقولون: ولكنك قـد ذكرت فى كتـابك (موقـف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة)، أن الحب بين الـرسول ﷺ وعـائشـة لم يكن مجرد علاقـة حب اعتيـادى بين زوجين وإنما هو حب خاص للغـاية قاصدًا بذلك حب الحبـيبين المتفـرد الذى تضرب به الأمثـال عبر الأزمان والعصور. وقد ذكرت فى ذلك قوله قاصدًا إياها بعد قسمه بين أزواجه فيعدل: «اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» إشارة إلى قلبه. رواه أهل السنن والأربعة وقال ابن كثير كل رجاله ثقاة.

الحـديث المتفق عليـه أنه ﷺ قال: «أريـتك فى المنام ثلاث ليال جـاء بك الملك فى سرقـة من حرير فيقـول: هذه امرأتك فأكشف عن وجـهك فإذا أنت فيه. إن يك هذا من عند الله يمـضه». أى أنه ﷺ كان يحبها قـبل أن تقترح عليه.

أقول: وما فى هذا؟ فما تعنيه الأحاديث معًا أنه أدرك ﷺ أنها قدر مقسوم له ولكنه لم يتكلم وعندما اقترحت عليه وافق فكانت موافقته إرضاء لنفسه وأبى بكر معًا ثم أنه بحبه الخاص لها بلغ درجة الكمال فى الحب الإنسانى بين الرجل والمرأة أى أن الله قدَّر له بلوغ الكمال فى كل منحى من مناحى الإنسانية.

وإن كان هذا حب محمد ﷺ لعائشة فلننظر كيف كان حبها هى له.

وقد يستوقفنا الغربيون هنا فيقولون: كيف تدعونا إلى أن نصدق وجود علاقة حب كهذه رغم فارق السن بين الزوجين؟

أقول كل كُتَّاب الحب المتخصصين على امتداد التاريخ لم يعترفوا بفارق السن عائقًا لوجـود علاقة حب بين طرفين ولـعل البعض يجهل أو يتجـاهل أن أكبر مثال واقعى على ذلك هو حب أنطونيو وكليوباترا على الرغم من أن فارق السن بينهما كان حوالى الثلاثين عامًا.

فإذا عدنا للحديث عن الموضوع بوجه عام فلا بد أن نشير مرة أخرى إلى أن الخطأ الأكبر الذى يحدث عـادة فى هذا الموضوع هو فى النظر إليه من الخارج، فلا يكـون الشاغل لنا عند تقـدير الأمور سـوى هذا العدد من الزوجـات وكأن المسألة هى مـجرد قياسى كـمى أمبيـريقى لا يثير سـوى الغرابة والاستعـجاب خصوصًـا بالنسبة للغربـيين الذين يحكمهم فى النظر إلى هذا الموضـوع المفهوم الكاثوليكى الأحادى فى الزواج. وقد يكون الأمـر مقارب لذلك لدى المسلمين الحاليين نتـيجة لتأثرهم الحضـارى بالغرب، أما بالنسبة للعـرب فى ذاك العصر فإنهم لم يكونوا يرون فى هذا العـدد من الزوجات رقمًا غريبًـا سواء كان ذلك فى الجاهلية أو الإسلام، كان يحدث ذلك كثيرًا من خلال تعدد الزواج والطلاق والزواج مرة أخرى وكان يقع ذلك لدى الكثير من الصحابة أنفسهم.

أقول من هنا الخطأ الكبـير فى النظر إلى الموضوع من الخارج وانشـغالنا فقط بهذا الرقـم دون الدخول فى الوقائع التـفصـيلية التى تكشف عن أبعـاد كثـيرة وعميقة للغاية فى الموضوع تفسر لنا غايات وطبيعة هذه الزيجات.

وكـذلك فإنه من الخطـأ الكبيـر أيضًـا أن ننظر فى الأمور الإنـسانيـة بشكل استقلالى منفصل عن الواقع المحيط بها فـإذا قيل إنه مادام كان لمحمد هذا العدد الكبير من الزوجات فإن ذلك يفسر مسـاعيه الشهوانية، فلابد أن نقول علينا أن ننظر فى أى واقع كانت تتم فيه هذه الزيجات حتى نخـتبر الأمر حقيقة هل هو يعبر عن روح شهوانية أم لا.

لأن التعـبير عن هذه الروح الشهـوانية يتطلب عدة الأمـور لابد من توافرها حتى يتحقق هذا الانسجام الشهـوانى. وأول ذلك الاستقرار الأمان (وكل البشر البـالغـين يعلمـون ذلك جيـدًا) فـأين ذلك من الرسـول الكريم ﷺ الذى احطاطت عليه أمم العرب وغـير العرب خارج المدينة واليهـود والمنافقون داخل المدينة وكان لا يفـتأ يخرج من معركـة حتى يدخل أخرى وليس الأمـر كما هو

مصور للناس الذين لا يعرفون سوى غزواته الشهيرة فقط

أعود فأقول كما أن غلبة الروح الشهوانية تتطلب قدرًا ولو قليلا من التنعم. أى على أدنى حد فيما يتعلق بالمسكن والمطعم والفراش.

فأين ذلك بالنسبة لحياة الرسول ﷺ الذى كان مسكن كل زوجة من زوجاته مجرد حصرة ملحقة بالمسجد لا يكاد يكون بها فراش على الإطلاق سوى حصير وعباءة منطوية، الأمر الذى أثار دهشة عمر بن الخطاب نفسه. ولا يقاد فى البيت نار طعام لمدة شهرين أو ثلاث ولا يشبع أهل البيت من الشعير يومين أو ثلاثة متتابعين كل ذلك رغم توافر ثروات الجزيرة العربية بين يديه نتيجة مغانم الغزوات والحروب.

ولكن كل ذلك باستثناء النذير.. النذير، كان يوزع على فقراء المسلمين وعلى تآليف قلوب أعداء الدعوة.

فأين هذا مما تفرضه متطلبات الشهوة.

إن البشر جميعًا يعلمون أثر التنعم فى الوجوه والأجساد وطالب الجمال لابد أن يكلأه بالوفرة والنعيم فإذا كان هو طالبًا ذلك من زوجاته فكيف يتركهم لهذا التقشف المريع إلى الدرجة التى يعلنون فيها ثورتهم على هذه الحياة.

إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى عام المجاعة تغير وجهه إلى السواد إثر أكله للزيت بدلا من السمن فما بالك بهؤلاء اللواتى لا يأكلن فى بيوتهن سمنًا أو زيتًا؟

ولكن قد يقول الغربيون فما رأيكم فيما قاله هو عن نفسه: «حبب إلىّ من الدنيا الطيب ،والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

وما رواه قتادة عن أنس بن مالك قال: «كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الليلة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. قال: قلت لأنس أوَ كان يطيقه قال كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين» (رواه البخارى).

أقول: إنه يقول إنه حُبِب أى أن الله حببه فى النساء (فى حديث صحيح رواه أحمد).

ولنا أن ننظر فى الأمر الآن.

فلو اتفقتم معنا فى الأسباب العامة والخاصة لما ذكرناه عن حالات زواجه فيكون أمامنا الآن فردين ننظر أيهما خير.

فإما أن يكون الزواج هنيئًا لهؤلاء الزوجات أو غير هانئ فإذا كان الأخيار ترتضيه النفوس البشرية سوى الخيار الأول فإن ذلك لابد أن يتضمن ما ذكر من تحبيب الله له فى النساء وأن تكون له القدرة على معاشرتهن بشكل مكافئ.

ومن ناحية أخرى فقد تمثل هذه الزيجات العديدة أهم دلائل نبوته بعد إعجاز القرآن الكريم فكما يقول المثل الرائج الذى يؤكد صدقه كل التاريخ البشرى: إن الإنسان لا يستطيع أن يكذب كل الوقت أمام كل الناس والإنسان مع امتداد عشرته لزوجته يكون عاريًا تمامًا من الناحية النفسية أمامها إلى الدرجة التى يستحيل معها أن يفوت عليها مدى صدق سريرته مع علانيته.

ولو كان هذا الرجل كاذبًا فيما يعلنه من نبوة، وما يقتضيه ذلك من التزامات لاكتفى بأقل عدد ممكن من الزوجات حتى يتخلص إلى أقصى حد من كثرة الشهوة على ما يخص سريرته ولكنه أن يجعل من كل هذا العدد شاهدًا عليه وعلى أن سريرته تطابق علانيته فإن ذلك لا شك من أهم دلائل نبوته خصوصًا أن أغلبهن عشن بعده ما يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين سنة وكان من بينهن من قتل لها أباها وأهلها فى غزواته وأتت لها الفرصة تلو الفرصة لتنتقم لو لم يكن هى نفسها قد ترسخ إيمانها من الداخل أنه نبى وأنه رسول الله ﷺ.

فإن قيل وهل كان يمكن أن تجرؤ إحداهن على ذلك فى ظل الدولة الإسلامية القوية، أقول إن التشكيك لا يحتاج إلى المغامرة وكان أهون شىء يمكن فعله فى هذا الاتجاه هو التهاون فى أحكام شريعته خصوصًا

أنها تتشدد في بعض الأمور بالنسبة لزوجاته عن باقي نساء المؤمنين. أما أن كون هؤلاء يواصلن حياة الزهد والتنسك بعده لأكثر من ثلاثين سنة فإن ذلك لا يمكن أن يعبر عقلا إلا على إيمانهم الراسخ العميق بأنه هو رسول الله ﷺ.

الرسول وعظماء الغرب
نابليون بونابرت يقول :
أنا أعظم من محمد

الرسول وعظماء الغرب.. نابليون بونابرت يقول: أنا أعظم من محمد

تعظيم الغـرب للقائد الفـرنسى التاريخى نابـليون بونابرت أمـر لا مراء فـيه فيكفى أن أشير هنا إلى أن ول ديورانت أهم مـؤرخى الغرب فى القرن العشرين قد خصص لتاريخه ثلاثة مجلدات من الحجم الكبيـر. أما فى فرنسا نفسها فإن الفرنسيين منذ بزوغ نجمه فى نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن أى على امتداد أكثر من قرنين ينظرون إليه وكأنه أقرب ما يكون إلى إله معظم.

أما نابليون ذاته فـقد كان يقول عن نفسه: «إن إله الحـرب وله الحظ حليفان لى».

ومع ذلك فليس هذا الاسـتـعظام لنابليـون فى الغـرب هو الذى أوحى إلينا بكتابة هذا الفصل، وإنما الـذى دفعنا لذلك بشكل أساسى تلك الجملة العجـيبة التى اعترضتنا ونحن نتابع تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، والتى لم يتصادف أن قابلتنا جملة مثلها على لسان واحد من عظماء العالم. حيث خاطب نابليون مشايخ الأزهر متعجبًا من عـدم موالاتهم له رغم بذل قصارى جهده لإرضائهم والتودد إليهم:

«قد أخـذنى منكم العجب أيهـا العلماء والسـادات، إذ إننى أراكم تغتـمون وتحزنون من انتـصارى، حـتى الآن ما عرفـتم مقدارى، وقـد خاطبـتكم مرارًا عديدة. وأخبـرتكم بأقوال بأننى أنا مسلم موحد، وأُعَظِّم النبى مـحمد وأتودد للمسلمين وأنتم إلى الآن غير مصدقين، وقد ظننتم أن خطابى هذا إليكم خشية منكم مع أنكم شاهدتم بأعينكم وسمعتم بأذنكم قوة بطشى واقتدارى، وحققتم

فتوحاتى وانتصارى. فقولى لكم أنى أحب النبى محمدًا وذلك لأنه بطل مثلى وظهوره مثل ظهورى. بل وأنا أعظم منه، إذ أننى غزوت أكثر منه. وأمامى باقى غزوات غزيرة وانتصارات كثيرة سوف تسمعونها بآذانكم وتشاهدونها بأعينكم. فلو كنتم عرفتمونى لكنتم عبدتمونى» (نقلا عن الجبرتى).

إن نابليون عندما قال هذا ربما وضع فى اعتباره الجانب العسكرى فقط على أساس أن مدى فتوحاته كان أوسع وأكبر، ولكن حتى فى هذا الجانب فهناك فارق كبير بين من بدأ فردًا وصنع أمة وبين من هيأت له الأقدار أن يقود جيشًا كان أقوى وأكبر جيوش العالم فى هذا الوقت، ويكفى فى ذلك أن الجيش الذى قاده نابليون لغزو روسيا كان يفوق الخمسمائة ألف جندى فأنَّى هذا بمن استطاع توحيد الجزيرة العربية ببضع مئات من الرجال تم تأليفهم ولم يكونوا ضمن نظام عسكرى سابق، ثم هناك فارق كبير بين من توسع فى فتوحاته فى أول الأمر ثم ما لبث أن خسرها جميعًا وتكالبت عليه الجيوش من كل جانب وخسر كل شىء حتى بلاده نفسها التى تركها أمة محطمة، وبين من استطاع أن يوحد الجزيرة العربية كلها والتى مساحتها تقارب مساحة أوروبا مجتمعة - ثم انطلق خلفاؤه من بعده لتتسع فتوحاتهم للدنيا جميعًا.

وكان محمد ﷺ يطلق أسراه إذا علَّم أحدهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، أما نابليون فقد كان يفرمهم بالسناكى كما صنع مع المسلمين فى يافا وكما صنع مع أهالى المدن المتمردة على الثورة فى فرنسا نفسها، بل كان يقتل جنوده أنفسهم إذا فتك بهم المرض ولم يعد فى حاجة إليهم كما صنع مع جنوده المصابين بالطاعون بعد هزيمته فى عكا.

أما إذا تحدثنا عن باقى مناحى العظمة الأخلاقية والفكرية والاجتماعية فإنه ليس من الممكن أن أعقد مقارنة أصلا بأى وجه من الوجوه، لقد كان نابليون آلة حرب جهنمية لا أكثر، أما باقى صفاته الأخرى فيلخصها صديقه وأعظم

قواده ومنقذه من الهزائم فى العديد من المعارك الجنرال ديزيه الذى يقول عنه: إنه متكبر متصنع، حقود، لا يغفر أبدًا وهو شديد الإيمان بالمؤامرات. . . وهو لا يؤمن بالاستقامة ولا الأدب واللياقة، ويقول إن كل ذلك حماقة، ويزعم أنه عديم الفائدة ولا وجود له فى هذه الدنيا»[1].

ولكن بمناسبة الحديث عن زوجات الرسول ﷺ وزعم نابليون فى العظمة المشار إليه فإن هناك حديثًا طريفًا يغرينى بالإشارة إليه فى هذا الموضوع وهو المقارنة بينهما فى العظمة فى جانب الحب والزوجة المحبوبة، وهو أمر يمثل غاية الغايات بالنسبة لأحلام البشر جميعًا، ولقد ذكرنا من قبل حديثًا طويلا عن علاقة الحب الكبير التى كانت تربط بين الرسول ﷺ وزوجته السيدة عائشة رضى الله عنها وغيرتها الشديدة عليه رغم فارق السن بينهما.

فترى كيف كان الحال بين نابليون وزوجته جوزفين التى كان يهيم بها وكانت تكبره بعامين؟!

ذكر كريستوفلد فى كتابه نابليون بونابرت عن هذا الحب والزواج: «وقبيل رحيله لتولى قيادة جيش إيطاليا تزوجا باحتفال مدنى. . . وكان يتوقع أن تلحق به فى إيطاليا بعد قليل ولكنها وجدت معينًا لا ينضب من الأعذار التى احتجت بها لتأخير سفرها وبينما كان ينتصر فى المعركة تلو المعركة ويبعث إلى جوزفين بنشرات انتصاراته التى يشيع فيها رنين الفخر والتى جعلت منه بطلا لأوروبا، مضت هى فى جولات لهوها بصحبة الشبان الحسان الوجوه».

وكان يصرخ لها: «إنك دمرتنى تدميرًا وقد أيقنت أنك فعلت هذا فى اللحظة التى خضع فيها قلبى لك».

ويصرخ أيضًا: «إننى أنا الذى ألفت الخطر. أعرف الدواء لجميع أوصاب الحياة، فالتعاسة التى أعانيها لا حصر لها. وكان من حقى ألا أتوقعها».

ويقول كريستوفلد فى موضع آخر: «تُرى هل أقدم نابليون على قتل زوجته

هذه بعد أن عاد إلى فرنسا؟

وإنما كانت لعـلاقاتهـا بالقيادات الفـرنسية فى ذلك الـوقت فضل كبـير فى صعوده إلى القـمة (راجع هـ.ج ويلز معالم تاريخ الإنســانية مج٢ جـ٢) ويغدو إمبـراطوراً ومن يتوج جوزفـين هذه إمبراطـورة هى الأخرى. ومع كل ذلك لا يستحيى رجل مثل هذا أن يقارن نفسه بعظمة الرسول ﷺ.

والخلاصة أنه إذا كان نابليون هذا أحد أعظم عظماء الغرب فعلى الغرب كله أن يخجل من نفسه إذا تحدث عن عظمة محمد ﷺ بكلمة سوء.

الفهرس

كتب المؤلف

- الإسلام الليبرالي بين الإخوان المسلمين والعلمانيين والوسطيين
- الإسلام والغرب الأمريكي بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار
- حقيقة العلمانية (الجزء الأول)
- حقيقة العلمانية (الجزء الثاني)
- تزييف الإسلام وأكذوبة المفكر الإسلامي المستنير
- كن قويا بالإيمان
- مواجهة المواجهة
- الصراع حول المادة وجوهر الحياة
- الإسلام والعولمة
- ابن رشد وفيلم المصير
- علمانيون أم ملحدون
- نظرية الفن الإسلامي
- أنت أعطيت البراءة لقاتلينا (شعر)
- الرد على بابا الفاتيكان وهجوم الغرب على الرسول (ص).

تحت الإعداد للطبع:

- العلمانية العدو الأول للإسلام: من البداية للنهاية
- قصائد استشهادية (شعر)
- أيتها الملكة : من على يديك (شعر)
- غرام تلميذة (شعر)